الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج – البويرة
معهد الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

البينة الحجاجية في النثر العباسي
تناول تداولي لكتاب
دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير
الشعبة: اللغة و الأدب العربي
التخصص: دراسات أدبية و لغوية

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذ :
نفيسة طيب د. بوعلي كحال

لجنة المناقشة:

أ/الدكتور: محمد يحياتن أستاذ التعليم العالي جامعة تيزي وزو رئيسا
الدكتور: كحال بوعلي أستاذ محاضر أ- المركز الجامعي بالبويرة مشرفا و مقررا
الدكتور: محمد الهادي بوطارن أستاذ محاضر أ- المدرسة العليا بوزريعة عضوا ممتحنا
الدكتور: سالم سعدون أستاذ محاضر أ- المركز الجامعي بالبويرة عضوا ممتحنا

السنة الجامعية 2011-2012

فهـــــرس المــوضــوعـــات

العنوان الصفحـة

مقدمة

المقـــدمــــة

كانت النصوص التراثية وما تزال محل اهتمام الباحثين فقد تناولها الدارسون من عدة زوايا غير أنّها بقيت موضوعا مثيرا للبحث خاصة مع ما توفره لنا المعارف الحديثة من مناهج و آليات، تلتقي مختلف هذه المناهج رغم اختلافاتها التي تصل حدّ التعارض في رغبتها في كشف أغوار النص للوصول إلى أعماقه متجاوزة بذلك ظاهره.

يُعدّ كتاب"دلائل الإعجاز" من الكتب التي شغلت الكثير من الباحثين؛ حيث تعدّدت الزوايا التي طرق منها، لكن رغم ذلك ما يزال يُخفي الكثير من الكنوز التي تستوجب البحث عنها.

اخترنا في هذا البحث النظر إلى هذا الكتاب من زاوية جديدة تعنى بالحجاج الذي يعدّ ركيزة النصوص الموجهة المتضمنة للمقصدية و النقاش والنقد والجدل.

ينتمي بحثنا هذا إلى مجموعة الدراسات التي تهتم بموضوع الحجاج و هي كثيرة ومتنوعة شملت القرآن الكريم في مقال لعزّ الدين الناجح : العبقرية الحجاجية في الّلغة العربية من خلال دراسة تداولية لسانية لسورة الإخلاص و كذا الشعر في كتاب سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته و أساليبه بالإضافة إلى بحث محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة. كما أنّنا نجد عددا من الدراسات الآكاديمية التي تناولت هذا الموضوع.

لم تكن دراسة النص الحجاجي حديثة و لا من مستجدات العصر؛ فدراستها موغلة في التاريخ إذ تعود إلى اليونان مع أفلاطون و أرسطو.

دُرس الحجاج في الفكر العربي تحت عناوين مختلفة باختلاف توجهات أصحابها لذلك بقي الحجاج قيد مدوّنات معينة مما دفعنا إلى البحث عن خطاب حجاجي شبه مكتمل المعالم فكانت "الدلائل" المدونة المناسبة لهذا البحث كون الجرجاني وضعها للدفاع عن موقفه و دحض أفكار معارضيه وإقناع المتلقي بأن النظم هو مكمن سرّ الإعجاز منطلقين من الإشكالية التالية: ماهي البنية الحجاجية في الدلائل؟ ما هي التقنيات الحجاجية التي اعتمدها الجرجاني في سبيل إقناع جمهوره؟ هل تمكَّن الجرجاني من تحقيق هدفه؟

شكلت هذه الإشكالية بتفرعاتها هيكل البحث و خطته التي ابتدأت بمقدمة ثم مدخل تلاه ثلاثة فصول و خاتمة.

خصصنا المدخل لإضاءة الإطار العام الذي ينتمي إليه البحث، فتحدثنا فيه باختصار عن مسألة إعجاز القرآن الكريم،هذا القرآن الذي أعجز البشرية قاطبة، فترك البشر في حيرة من سر إعجازه: أهو معجز بلغته؟ أم بمعانيه ؟ أم بغيبياته؟ أم بفعله في القلوب و العقول؟ فألّفت الكتب والرسائل التي تناولت هذا الموضوع فردّ بعضهم عن بعض و عارض بعضهم بعضا إلى أن جاء الجرجاني و فصل الحديث في هذا الموضوع.

اشتمل المدخل كذلك على إطلالة خاطفة عن المنهج التداولي- باعتباره الأداة التي توسلناها، والذي يُعنى بالاستعمال الفعلي للغلة و كذا أثرها في المتلقي، و تولي التداولية أهمية لظروف إنتاج الكلام باعتبارأن الاستعمال هو الذي يحدد بنية اللغة التركيبية.

تلا المدخل فصل أول، جاء فيه حديث عن نظرية يعود منشأها إلى أفلاطون والسفسطائيين ثم أعادت التداولية بعثها من جديد.

تحدثنا كذلك في هذا الفصل على جهود علمائنا العرب في هذا الميدان أمثال الجاحظ وابن خلدون. تضمن هذا الفصل كذلك حديثاعن الإستراتيجية الحجاجية، و التي تمثل الطريق الذي يسلكه المحاجج في توزيع حججه بمختلف أنواعها و كيفية استخدامها و المراحل التي يتبعها قصد تحقيق هدفه أي إقناع المتلقي.

أما الفصل الثاني فخصصناه للحديث عن خصائص النص الحجاجي عند الجرجاني، قمنا في البداية بتعريف أركان العملية الحجاجية: المرسل عبد القاهر الجرجاني، المتلقي من معاصريه و الذين سبقوه ممن خاضوا في مسألة الإعجاز وخاصة المعتزلة وكذا الذين جاءوا من بعده و تأثروا بكتابه، الحجج ذكرنا فيها مجموعة من الحجج التي اعتمدها الجرجاني في الدفاع عن آرائه ودحض أفكار معارضيه، الهدف وهو إقناع المتلقي بأن القرآن الكريم معجز بنظمه لا غير. انتقلنا بعد ذلك للحديث عن خصائص النص الحجاجي كالتناغم، الحوارية، الاستدلال، البرهنة و القصد المعلن و مدى تورفها في نص الجرجاني.

ضم هذا الفصل أيضا الحديث عن شروط نجاح النص الحجاجي: كالحياد، حسن اختيار الألفاظ، إحداث تغيير في أفكار المتلقي... و غيرها ومدى توفرها في نص الدلائل.

أما الفصل الثالث فقد وضعناه للحديث عن البنية الحجاجية في الدلائل و ذلك من خلال التطرق إلى عدة نقاط.

تناولنا في بداية هذا الفصل التقنيات التي يستخدمها المخاطب لإقناع جمهوره بمختلف أنواعها: اللغوية، البلاغية و الشبه منطقية. ثم تعرضنا إلى مختلف الحجج التي وظفها الجرجاني من حجج شبه منطقية، و حجج مؤسسة على بنية الواقع، و أخرى مؤسسة لبنية الواقع وتلك التي تستدعي القيم، وكذا التي تستدعي المشترك وتربط هذه الحجج مجموعة من العلاقات وهي آخر

نقطة تناولناها في هذا الفصل، من بين هذه العلاقات نذكر علاقة التتابع، العلاقة السببية، علاقة الإقتضاء، علاقة الاستنتاج و علاقة عدم الاتفاق أو التناقض.

اعتمدنا لإنجاز هذا البحث على المنهج التداولي، الذي يعد آخر المناهج النقدية، فهو يأخذ بالاعتبار كل أركان العملية التواصلية مما ساعدنا على الإحاطة بمكونات الخطاب المختلفة.

استدعى البحث في هذا المجال الاعتماد على مجموعة من المصادر و المراجع أهمها: تلخيص الخطابة لابن رشد، الحجاج في الشعر العربي القديم لسامية الدريدي، الحجاج في البلاغة المعاصرة لمحمد سالم محمد الأمين الطلبة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم بإشراف حمادي صمود. استعنّا كذلك بمراجع أجنبية نذكر منها:
L'argumentation dans la langue, O.Ducrot- J-C. Ancsombre, l'argumentation dans la communication, Philippe Breton, Logique, langue et argumentation, Michel Meyer.

أعاق انجازنا لهذا البحث جملة من الصعوبات؛ من بينها قلة المراجع الحديثة المتخصصة في هذا الموضوع و خاصة من الناحية التطبيقية و إن وجدت فهي صعبة الطرح وتختلف من دارس إلى آخر، كما أن رواد هذه النظرية لا يتفقون على منهج واحد أو نظرية واحدة تمكن الباحث المبتدئ من الخوض في هذا الموضوع ببساطة دون تعقيد، إضافة إلى أن هذا الموضوع لا يزال قيد التشكل فهذه النظرية لم تكتمل بعد.

لا يفوتني في هذا المقام المتواضع أن أتقدم بالشكر الخاص إلى الأستاذ المشرف الدكتور بوعلي كحال على تعهده لهذا العمل بسعة من الاهتمام و فياض من الصبر، فكان أفضل معين و أكبر متفهم للظروف التي أحاطت انجاز هذا البحث.

كما لا يفوتني هنا أيضا أن أتقدم بأسمى عبارات الاحترام و التقدير لكل الأساتذة الذين ساهموا في بلوغي هذه المرحلة.

المدخل

إعجـــــــــاز القرآن:

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن بلسان عربي مبين يقول: ((**إِنَا أَنزَلنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًا لَعَلَكُم تَعقِلُونَ**)). يوسف 02، فجاء هذا القرآن في قمّة البلاغة والفصاحة والبيان، فسحر النفوس وسدّ العقول وأعجز أرباب الفصاحة والبيان فـــ "الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما، أنشأه كتابا ساطعا تبيانه، قاطعا برهانه، وحيا ناطقا ببينات وحجج، قرآنا عربيا غير ذي عوج، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية، ومُصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان(...) أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ...»[1]

تحدث الزمخشري عن القرآن فأجاد القول، كيف وهو صاحب "الكشاف" الذي أفرده للكشف عن خبايا القرآن الكريم وكشف غريبه وعجيبه، بعد أن تحدّث عن مزايا القرآن البلاغية من حسن التأليف والنظم وعن حججه وآياته (براهينه) بالإضافة إلى المنافع الدينية والدنيوية التي يشملها القرآن الكريم، ذكر شيئا هاما وهو تحدي الله سبحانه وتعالى للعرب بالإتيان بمثله وهم أرباب الفصاحة والبيان لكن رغم ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله وهو ما يؤكده السيوطي في قوله: "ولمّا جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وكانوا أفصحَ الفصحاء، ومَصاقعَ الخطباء، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: ((**فَليَأتُوا بِمِثلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**)). الطور34»[2]، فرغم المنزلة التي وصل إليها العرب من حيث البلاغة والفصاحة إلا أنهم فشلوا على الإتيان بمثل القرآن الكريم، فقد "جاء القرآن الكريم أفصح كلاما وأبلغ أسلوبا ومعنى، ليجد السبيل إلى قلوب أهل الجزيرة العربية التي كانت مسرحا للفوضى والاضطراب، وهو لا يستطيع أن يستولي عليها إلاّ إذا كان أقوى منها فيما هي قوية به بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف، سمعه فصحاؤهم

---

[1]- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض 1998، ص 94-95.

[2]- الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، ب.ط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ب.ت، ص 1875.

وبلغاؤهم فخرسوا لفصاحته، مذعنين لبلاغته، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم، وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم .... وذهبت كل بلاغة في تياره».[1]

استطاع القرآن الكريم أن يستولي على قلوب وعقول العرب لما جاء قويا في الناحية التي كانت العرب تتفاخر فيها، وبذلك أعجز العرب وأحسّهم بالضعف فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله.

يذهب "أبو هلال العسكري " إلى أنّ عجز العرب على معارضة القرآن الكريم ورفع التحدي لهو دليل على إعجاز القرآن: " وإنّما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه"[2]، فالعرب لم تستطع أن تجاري جانبا من جوانب القرآن، لا من حيث كمال الألفاظ أو صفاء المعاني أو سلاسة التركيب أو حسن النظم وبراعته.

وعن حقيقة المعجز [*] يقول الباقلاني: " معنى قولنا ((إن القرآن معجز)) على أصولنا، أنه لا يقدر العباد عليه، وقد ثبت أنّ المعجز الدال على صدق النبي عليه الصلاة والسلام لا يصح دخوله تحت قدرة العباد، وإنّما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه، ولا يجوز أن يعجز العباد عمّا تستحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام، فنحن لا نقدر على ذلك وإن لم يصح وصفنا بأننا عاجزون عن ذلك حقيقة، وكذلك سائر الأشياء على هذا" [3]، فالتحدي جاء من جنس المقدرة، فالعرب بلغت منزلة كبيرة في تأليف الكلام شعرا ونثرا فجاء التحدي في الميدان الذي يفقهون فيه، ولم يأتهم التحدي في أمر مستحيل لا يقدرون عليه كخلق الإنسان مثلا، ففي تلك الحالة لا

---

[1]- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ط 14، دار العلم للملايين، لبنان 1977، ص 25-26.

[2]- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر العربي، ب.ب، ب.ت، ص 08.

[*]- مفهوم المعجزة هي: أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ولا تخضع للأسباب والمسببات ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي وإنما هي هبة من الله سبحانه وتعالى يختار نوعها وزمانها ليبرهن بها على صدق رسول الله الذي أكرمه بالرسالة. مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط2، دار المسلم، الرياض 1996، ص 15.

ويقول السيوطي: "أعلم أن المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي: إمّا حسية، وإما عقلية"، الإتقان في علوم القرآن، ص 1973.

[3]- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني،إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ب.ط، دار المعارف، مصر، ب.ت، ص 436.

يصح التحدي ولا يمكن أن نقول أنهم عجزوا لأن ذلك ليس بمقدورهم، بل هو من قدرة الخالق وحده.

وممّا يؤكد عجزهم طول التحدي وفي كل مرة كان الله سبحانه وتعالى يسهل عليهم بإنقاصه عدد السور إلى أن وصلت إلى آية واحدة غير أنهم لم يتمكنوا من الإتيان بها، وهو ما يوضحه قول السيوطي: "... وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: ((**فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**)) الطور 34. ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله: ((**أَم يَقُولُونَ اِفتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادعُوا مَن اِستَطَعتُم مِن دُونِ الله إِن كُنْتُم صَادِقِينَ، فَإِن لَم يَستَجِيبُوا لَكُم فَعلَمُوا أَنَمَا أُنزِلَ بِعِلمِ وَأَنَ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)) هود 13 – 14، ثم تحداهم بسورة في قوله: ((**أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ**)) يونس 38، ثم كرره في قوله: ((**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**)) البقرة 23، فلمّاعجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى بإظهار العجز وإعجاز القرآن، فقال: ((**قُلْ لَئِنْ اِجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهَمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**)) الإسراء 88، هذا وهم الفصحاء اللّدُّ..." [1]، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى عباده في بداية الأمر بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بمثل عشر سور منه فلم يستطيعوا، ثم أنزل المقدار إلى سورة واحدة فقط فعجزوا حتى عن الإتيان بآية من مثله، وبعد ذلك يقرّ الله تعالى إعجاز القرآن الكريم وعجز العرب عن الإتيان بمثله حتى وإن اجتمعت الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهير.

يقول الجاحظ: " وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به، فحيث استحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبيّن ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبيا قط، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات...." [2]، فقد اختار الله

---

[1]– جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 1875.

[2]– أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، رسائل الجاحظ: الرسائل الكلامية، قدّم لها وبوّبها: علي بوملحم، ب.ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت 2004، ص 156.

معجزة القرآن من بيئة العرب ومن النوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ورقيهم الحضاري، فكانت الحجة أقوى.

لم تُعط معرفة " فضل القرآن" إلاّ لــ " من كثر نظره، واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللّغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصّيصا من الله، لما أرهصَهُ في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوَّته بالكتاب، فجعله عَلَمه، كما جعل عَلَم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور لما في زمانه المبعوث فيه، فكان لموسى فلق البحر واليد والعصا، وتفجّر الحجر في التّيه بالماء الرواء، إلى سائر أعلام زمن السحر، وكان لعيسى إحياء الموتى وخلق الطير من الطين وإبراء الأكمه والأبرص إلى سائر أعلامه زمن الطب، وكان لمحمد عليه الصلاة والسلام الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيرا، إلى سائر أعلامه زمن البيان".[1]

يجعل "ابن قتيبة"معرفة مكانة القرآن وفضله حكرا على العالم المتبحّر في علوم العربية، والملمّ بمذاهبها وأساليبها والع ارف بأسرارها ومك نوناتها، فالعربية لغة مميزة عن سائر اللغات فقد حباها الله من فضله الكثير ليجعله ا علامة على نبوة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر أنّ المعجزة تكون مما هو سائد في المجتمع، فلمّا كان السحر شائعا في عصر سيدنا موسى وكان له الأثر الرهيب في النفوس، جاءت معجزاته كذلك، كالعصا التي انقلبت ثعبانا وكفل ق ه البحر بالعصا.... وغيرها، ولمّا عُرف مجتمع سيدنا عيسى بتطور الطب وافتتان الناس به جاءت معجزاته على ذلك المنوال فأحيى الموتى وأشفى الأبكم والأبرص.... وغيرها، وهو الحال مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوتي الكتاب الذي لم ولن يستطيع مخلوق أن يأتي بمثله رغم أنّ العصر الذي كان فيه هو عصر البيان بامتياز.

كانت العرب أيام النبي صلى الله عليه وسلم تفهم القرآن الكريم وتقرأه بكل سهولة وإن استعسر عنها شيء سألت النبي عليه الصلاة والسلام ، واستمرّ الأمر على ذلك إلى أن توسعت رقعة الإسلام شرقا وغربا ودخلت مختلف الأمم إلى الإسلام، فأدخلت اللّحن على القرآن وأصبح غير المسلمين يطعنون في هذا القرآن وأكثروا الشبهات حوله فكادت أن تجد مكانا لها في نفوس المتأخرين منهم، مما دفع علماء

---

[1]- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر، ط 2، دار التراث، القاهرة 1983، ص 12.

العرب إلى تأليف الكتب دفاعا عن هذا القرآن وتوضيحا لمعانيه لمن تعسّر عليه فهمه؛ "ولما كثرت المطاعن في القرآن وأوشكت الشبهات أن تأخذ سبيلها إلى نفوس الأغرار والأحداث، نهض فريق من العلماء يدرءون عنه وينافحون دونه ويرمون من ورائه بالحجج النيّرة والأدلّة الواقعة، فشرعوا أقلامهم لتأليف الكتب والرسائل في الردّ عليهم، وتبيين مفترياتهم، وفي طليعة هؤلاء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، فقد عمد إلى مطاعنهم فيه فجمعها ثم كر عليها بالنقض في كتابه تأويل مشكل القرآن "[1]، أحسّ علماؤنا الأجلاء بالخطر يحدق بكتاب الله عز وجل، غير أن الله تعّهد بالحفاظ عليه في قوله: ((**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)) الحجر 09، فأخذوا يؤلفون الكتب يردون فيها عن هؤلاء المشكّكين ويقدموا الحجج والبراهين المؤيّدة لآرائهم وكان ابن قتيبة من السباقين في هذا المجال.

يعود التأليف في موضوع إعجاز القرآن إلى الردود التي كتبها العلماء الأجلاء عن قول شيخ المعتزلة واصل بن عطاء(ت 131 هجري): "لم يلتفت جمهور العلماء إلى البحث عن وجه الإعجاز والمعجزة القرآنية (...) إلاّ بعد أن نقل عن واصل بن عطاءالمتوفى سنة 131 هجري شيخ المعتزلة في البصرة قول غريب وهو أنّ إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه، وإنّما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته، وهو القول الذي تبنّاه فيما بعد إبراهيم بن سيار النّظّام المتوفى سنة 231 هجري، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول بـــ الصرفة ، عند ذلك بدأ العلماء يتعرضون في ثنايا كتبهم لوجه الإعجاز ويتحدثون عن إعجاز القرآن، ولعلّ أوّل من تولى الرد على قول الصرفة هو الجاحظ تلميذ النّظّام" [2]، إذن القول بالصرفة هو الباعث على التأليف في الإعجاز القرآني وذلك نظرا لخطورة هذا القول، فالأخذ به يؤدي إلى نفي الإعجاز عن القرآن الكريم، فالصرفة تعني أن للبشر القدرة عن الإتيان بمثل القرآن، لكن الله سبحانه وتعالى صرف البشر عن معارضته ولولا ذلك لاستطاعوا أن يعارضوه.

استمرّ التأليف في هذا الموضوع، وأخذ العلماء يجتهدون لإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، فكتب أبو بكر الباقلاني " إعجاز القرآن"، وكتب أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي "بيان إعجاز القرآن"، ووضع أبو الحسن علي بن عيسى

[1]- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 7-8. (مقدمة المحقق)

[2]- مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط2، دار المسلم، الرياض 1996، ص 46.

الرماني "النكت في إعجاز القرآن"، وألف عبد القاهر الجر ج اني "الرسالة الشافية"، كما وضع قبل هؤلاء أبو عثمان الجاحظ "الرد على النصارى".

ذهب العلماء في بيان إعجاز القرآن مذاهب واتجاهات، ولكل مذهب حجج وبراهين تقوي اتجاهه و تضعف الاتجاهات الأخرى، فهناك من جعله معجزا بالصرفة، وهناك من قال أنه معجز ببلاغته، وهناك من قال أنه معجز بنظمه وهناك من جعله معجزا بالأخبار الغيبية التي يحتويها ... وغيرها من المذاهب.

الحقيقة أن وجوه إعجاز القرآن كثيرة، تحتاج إلى تحليل وإسهاب، غير أنّنا سنكتفي بذكر بعض الآراء لبعض العلماء لأنّ المقام لا يسمح لنا بالإسهاب.

اختلف العلماء في تحديد وجوه الإعجاز: "تباينت أقوال العلماء في تحديد وجوه القرآن الكريم: فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه، ومنهم من جعل وجوه الإعجاز وجها واحدًا ونافح عنه وأورد الاعتراضات على سواه. ومن ي تتبع هذه الوجوه التي ذكرها العلماء قديما وحديثا يجد كثيرًا منها تتداخل أو تتشابه ويمكنه بعد الاستقراء والتحقق أن يجمع بين كثير منها"[1] وهذا صحيح، نلاحظ من خلال الإطلاع على مختلف الكتب التي تناولت هذا الموضوع، أنها تلتقي في الكثير من النقاط ولكل طريقته في التعبير فقط.

يذكر "الخطابي" في "بيان إعجاز القرآن" الأوجه التالية :

"وإنّما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية [وبألفاظها] التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله"، فالخطابي يجعل جهل البشر بجميع ألفاظ اللغة وكذا عدم إلهامهم بمعاني الأشياء، و كذا عدم معرفتهم بكل أوجه النظم سبب عجزهم.

كما يعتبر فعل القرآن الكريم بالقلوب والنفوس وجها من وجوه إعجاز القرآن: "قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلّا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا... يدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا"[2]

---

[1]– مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط2، دار المسلم، الرياض 1996، ص 121.

[2]– الخطابي، "بيان إعجاز القرآن"، ص 70.

ويضرب لذلك مثلا قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كيف أسلم عندما سمع النبيّ يتلو آيات بيّنات من الذكر الحكيم.

أمّا الرماني (386 ه) فيجعل أوجه الإعجاز سبعة:"وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة، والتحدي للكافة، والصّرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقص العادة، وقياس بكل معجزه"[1]، وقام بشرح كل وجه من هذه الوجوه.

اتّسمت الدراسات القرآنية في القرنين الثّاني والثّالث هجري بالإيغال في اللغوية والمنطقية من قبل علماء اللّغة والمتكلمين، أمّا في القرن الرّابع للهجرة ظهر اتجاه جديد حيث "بدأ دارسوا النص القرآني يحسّون بضرورة التوجه نحو الخصوصية الذاتية للنص القرآني، باعتباره دليلا على النبوّة والوحدانية".[2]

غلب الاتجاه البلاغي على الدراسات القرآنية في القرن الرّابع خاصة مع الرماني (ت 386 ه) والخطابي (ت 388 ه) والباقلاني (ت 403 ه) بالإضافة إلى عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري "والذي يهمّنا في هذا المجال هو أنّ البحث في إعجاز القرآن بلاغيا صار منحى قائم الذات يفتتح الحديث فيه، في الغالب، بديباجة تذكر بالأوجه الاعجازية الأخرى المقبول منها والمرفوض، كما نجد عند علماء القرن الرابع [الرماني (ت 386 ه) والخطابي (ت 388 ه) والباقلاني (ت 403 ه)] أو يفرد الحديث العامّ في الإعجاز بعمل مستقل كما فعل الجرجاني في القرن الخامس، حيث خصّ السؤال الاعجازي العام ببحث مستقل: "الرسالة الشافية، نحا فيه منحى كلاميًّا خالصًا شبيهًا بمنحى القاضي عبد الجبار، ثم عالج قضية الإعجاز البلاغي معالجة خاصة في عمل مستقل في الدلائل مباشرة والأسرار ضمنيا"[3]. نجد في هذا الاتجاه نوعين من الباحثين، فمنهم من وضع كتابا مستقلا في الإعجاز وهناك من يفتتح به كلامه، كما نجد عند الخطابي الذي يفصل الحديث في أبواب البلاغة، ففي مقابل الإعجازيين الذين توجهوا نحو التحليل البلاغي للإعجاز "فإن فريقا آخر توجه نحو تعليل إعجاز القرآن بطريقة نظمه، ومن ثمّة أصبح النّظم مفهومًا نقديا مركزيًا، (...) فالنص القرآني معجز بنظمه الذي يخرج عن جميع وجوه النّظم المعتاد في كلام

---

[1]– أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 75.

[2]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ط1، إفريقيا الشرق، المغرب 1999، ص160.

[3]– المرجع نفسه، ص 161.

العرب"[1]. امتاز الجرجاني عن سابقيه بأن أفرد كتابًا كاملًا للحديث عن النّظم "لعلّ الجرجاني تميّز عن أقرانه بأن قدم للنص القرآني قراءة جمالية متميّزة، لم يقف عند الحدود الجمالية التي رسمت في السابق، بل تجاوزها كثيرًا من خلال رؤية شمولية لا تتساءل عن النص القرآني هل هو معجز أو غير معجز، بل تبحث في الكيفية التي جاء بها النص معجزا".[2]

امتاز الجرجاني عن أنداده بتجاوز البحث في السؤال: هل القرآن معجز أم لا؟ بل بحث عن مكمن ذلك الإعجاز وألّف في ذلك: الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز والأسرار، ونحن سنعمد إلى دراسة "الدلائل" التي ضمّنها الأدلة والحجج التي تدل على أنّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه، وسنبحث عن البنية الحجاجية التي اعتمدها للإقناع برأيه معتمدين على مقاربة النص تداوليًا مستخدمين لذلك ما جاء في نظرية الحجاج حسب رواد هذا الاتجاه من إجراءات ووسائل.

نشـأة التـداوليـة:

تعدّ التداولية آخر المناهج النقدية والتي "ظهرت في مرحلة ما بعد البنيوية كردّة فعل لكثرة التنظيرات التي ازدهرت في تلك المرحلة" [3]، فبينما حصرت البنيوية دراسة اللّغة "في ذاتها ولذاتها" اهتمت التداولية بجميع عناصر العملية التخاطبية من مرسل، متلقي، رسالة، سياق.

يذهب البعض من ناحية أخرى إلى أنّ "البلاغيين القدامى تداوليين، إذ كانوا يفكّرون في الصِّلاة القائمة بين اللّغة والمنطق (وخاصة المنطق الحجاجي) من جهة وآثار الخطاب في السامع من جهة أخرى..."[4].فالتداولية لها جذور تضرب في القدم، فالباحث يُرجِع أصولها إلى البلاغيين القدامى كونهم اهتموا بعلاقة اللّغة بالسياق والدور الذي يلعبه السياق في توجيه الخطاب، كما أنّهم لم يُهمِلوا الاهتمام بالآثار التي يَتركها الخطاب في المتلقي.

---

(1)– محمد تحريشي، النقد والإعجاز، ب.ط، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2004، ص 230.

(2)– المرجع نفسه، ص 179.

(3)– ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط 3، المركز الثقافي العربي، المغرب 2002، ص167.

(4)– فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط1، دار الحوار، سورية 2007، ص20.

انطلق "ج. ل. أوستن" في تأسيسه للتداولية من المنطق التحليلي وتبعه في ذلك "ج. سورل" يقول فليب بلانشيه: "لقد وضع أوستن وتلميذه سورل نواة التداولية، في حقل فلسفة اللّغة العادية (Ordinaire) إذ طوّرا من وجهة نظر المنطق التحليلي (LogiqueAnalytique) مفهوم "العمل اللّغوي" (Acte de Langage)"(1).

ظهرت التداولية عند أوستن في ميدان اللّغة العادية، إذ كان اهتمامه منصبا على اللّغة العادية اليومية، حيث أعاد النّظر في كثير من قواعد اللّغة الكلاسيكية، "والحال أن الفلسفة الأوستينية للّغة، إنّما تولدت عن الفلسفة التحليلية، وبين فريجه وأوستن، تتموقع أعمال لودفيغ فيتغنشتين، التي ستقود إلى نشأة التداولية، إضافة إلى أنّ أعمال فريجه، ستؤدي إلى الفصل الواضح للّغة العلمية عن اللّغة العادية، فالأولى ضرورية في البرهنة الحسابية، ويجب أن تكون أحادية المعنى صريحة، وليس لها من هدف سوى وضع حقيقة. أمّا اللغة العادية، فيجب أن تكون متعدّدة المعاني كي تتمتع بثراء الممكنات التي تهيئ لها تأدية وظائفها التواصلية بالشكل الملائم، وبالمرّة، فقد وضع غ. فريجه حجر الأساس لعلم الدلالة، ومن ورائها التداولية..."(2)

ساهم كلّ من فريجه وأوستن وكذا لودفيغ فيتغنشتين في نشأة التداولية، فأعمال فريجه كان لها دور كبير في الفصل بين اللّغة العلمية واللّغة العادية؛ فلكل واحدة مجالها وميزاتها مثلما هو مذكور أعلاه؛ فاللّغة العلمية مجالها البرهنة الحسابية والتي مجالها العلوم الدقيقة كالرياضيات، الفيزياء ، والعلوم والفلسفة لأنّها لغة تهدف لبلوغ الحقيقة، وبلوغ الحقيقة يستدعي لغة دقيقة، صريحة، تحمل معناه ا وفقط، فهي لا تقبل التأويل بينما اللّغة العادية، متعدّدة الدلالة، تقبل التأويل، لا تمتاز بالدقة، وذلك أنّ التعدد في الدّلالات يساعدها في آداء وظيفتها التواصلية بين المتخاطبين بالشكل المناسب والطريقة الملائمة، فمن خلال هذه التفرقة بين اللّغتين بدأت بوادر التداولية.

من خلال الإطلاع على مختلف المراجع التي تتحدث عن نشأة التداولية، نجدها تجمع على اهتمام التداولية بالتواصل اعتنائها بالاستعمال الفعلي للّغة وأثر هذه اللّغة في المتلقي، كما أنّها –أي المتداولة – لا تغفل ظروف انتاج الكلام، وهو ما يجمعه خليفة بوجادي في قوله: "وخلاصة الخلفية الفكرية والثقافية الّتي نشأت فيها البحوث التداولية، أنّها تنطلق جميعا من الاهتمام بالتواصل، والاستعمال الفعلي للّغة، لأنّ ذلك ما يحدد بنيتها التركيبية، إضافة إلى أنّ المتكلم يبني كلامه وفق ظروف

(1)– فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 20.

(2)– المرجع نفسه، ص 30.

التواصل، وطبيعة المتلقي، لا وفق مبادئ النظام أو حتى ما يرتبط به هو، بعَدّه منتج الكلام"[1]؛ فالتداولية تصبّ اهتمامها على الاستعمال الفعلي للّغة لأنّ هذا الاستعمال هو الّذي يحدّد بنية اللّغة التركيبية، فاللّغة تدرس من خلال الاستعمال، ففي ذلك الاستعمال يقوم المتكلّم بتركيب الكلمات ودراسة هذه اللّغة يكشف عن بنيتها، كما أنّ المتكلّم ينتج خطابه وفقًا للظروف المحيطة ب ه بالإضافة إلى أنّ المتكلّم ينتج خطابه بناءً على مُخَاطِبه وانفعالاته وردّات فعله.

يجمع جلّ الباحثين عن الدور الهام الّذي لعبه ج. أوستن وتلميذه سورل في تطوير[*] التداولية، وتوسيع مجالها وتنويع ميدانها أو ميادينها، وهو ما تؤكده "فرانسواز أرغوددوتار: "أعمال (ج. ل. أوستن) و أعمال (ج. ر. سورل) وأعمال المدرسة الإنجليزية أدخلت مصطلحات أفعال الكلام، الضمنيات، الحجاج، ثمّ اتسعت بفضل أعمال المدرسة الفرنسية، مع (أ. ديكرو، ف. ركناتي)، مثلا: أخذت جميع وضعيات التخاطب بعين الاعتبار في دراسة الملفوظ" [2]، فقد اهتم "أوستن وسورل" بمواضيع جديدة كأفعال الكلام واهتمت المدرسة الانجليزية كذلك بمواضيع أخرى - أعادت النظر فيها وفقًا للمنهج التداولي - كما ساهمت المدرسة الفرنسية بمختلف روادها في توسيع وتطوير هذه المواضيع، وكلا المدرستين أخذت بعين الاعتبار الظروف التي تحيط بالعملية التخاطبية أثناء دراسة الملفوظات.

---

[1]- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط 1، بيت الحكمة، العلمة 2009، ص 62.

[*]- أقول أن "ج. أوستن/ ج. سورل" ساهما في تطوير التداولية ، لأن نشأة التداولية كما ذهب إليه "الجيلالي دلاش" تعود إلى "ش. س. بيرس" و"ش. موريس"، كما يذكر مساهمة "بوهلر"، فهو يرى أن للعالم والسيميائي "ش. س. بيرس" اليد الطولى في المنعطف الذي حصل صوب اللسانيات التداولية. كما أنّ "بورس" أَوْلَى اهتمامه للعادات التي تتولّد عن دلالة الأشياء وما يميّز تلك العادات هي الكيفية التي تحمل السامع على العمل، كما يذكر "الجيلالي دلاش" مساهمات "ش. موريس" الذي أعاد صياغة بعض أفكار "بيرس"، حيث درس اللّغة من ثلاثة جوانب من ناحية: الأدلة (الدراسة التركيبية)، الأشياء المدلول عليها (الدراسة الدلالية)، وكذا المسؤولين والمستخدمين (الدراسة التداولية)، أمّا "بوهلر" فقد توصل إلى نتيجة هامة في ميدان التداولية، وهي أن الفعل يقوم بوظيفة مركزية تحدد بنية الجملة، وهذه الخاصية تجعل المتكلمين أفرادا فاعلين وأطراف ذوي نشاط لغوي حقيقي، ثم يتابع بعد ذلك مسيرة تطوّر هذا المنهج، كيف طوّر أدواته الإجرائية، وفتح آفاقا واسعة في ميادين أخرى عديدة، ينظر "الجيلالي دلاش": مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ب. ت، ص 8، 10، 13 و 51.

[2]- Françoise Argod-Dutard, La Linguistique Littéraire, Armand Colin, Paris1998, P07.

ذكرنا باختصار شديد ما يمكن أن يقال عن نشأة التداولية – فالمقام لا يسمح لنا بذكر التفاصيل الكثيرة في هذا الموضوع – لكن لنا أن نتساءل: مـــا هـــي التـــداوليـــة؟

التـداوليـة: المفهــوم والمصطلـح

أسال مصطلح "التداولية" ومفهومها الحبر الكثير، نظرا لغموض المصطلح وتشعّب المفهوم.

تعود جذور مصطلح "التداولية" إلى اليونانية وتعني الفعل " تعود جذور "Pragmatique" (التداولية) إلى الاسم اليوناني " Pragma" والذي يعني "العمل" ومن هذا الاسم اشتقت صفة "Pragmatikos" والتي تحيل إلى كل ما له علاقة بالفعل "[1]، وهنا نجد المصطلح مطابق لمذهب ومسعى المنهج.

رغم هذا الوضوح الذي يتسم به المصطلح في الجذر اليوناني إلاّ أنّ الباحثين يرونه غامضًا يقول فليب بلانشيه: "يبدو مصطلح (التداولية) (Pragmatique) على درجة من الغموض، إذ يقترن به في اللّغة الفرنسية المعنيان التاليان: "محسوس" و"ملائم للحقيقة"، أمّا في الانجليزية، وهي اللّغة التي كتبت بها في أغلب النصوص المؤسّسة للتداولية، فإنّ كلمة (Pragmatic) تدلّ في الغالب على "ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية"[2]، هذا الغموض الذي يشير إليه الباحث في علاقة المعنى اللّغوي مع معناها الاصطلاحي خاصة في الفرنسية فالمحسوس والملائم للحقيقة بعيدة نوعا ما عن المعنى اللاتيني للكلمة، لكن المحسوس من وجهة نظرنا ليست بعيدة جدًّا عن كل ما له علاقة بالفعل، فالأفعال تكون محسوسة أما "الملائم للحقيقة" فهو بعيد نوعا ما، فالأفعال أو ما يتعلّق بالأفعال لا يكون ملائما للحقيقة بالضرورة.

أمّا في الانجليزية، فهي لا تبتعد كثيرا عن معناها في اليونانية، ففي كلا اللّغتين تدلّ على كل ما له علاقة بالفعل.

(1)– Jean –Micheal Gouvard, La Pragmatique Outils pour l’analyse littéraire, Armand Colin, Paris 1998, P4.

(2)– فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 17.

يلمس هذا الغموض فليب بلانشيه كذلك فيقول عن كلمة تداولية: "إنها كلمة فضفاضة جرى في الاستعمال الفرنكوفوني لها أنّها تعني دلالات ومعاني بعيدة مما هو مقصود ههنا"[1]، يريد بـــ (ههنا) تعريفه الاصطلاحي للتداولية ويعتبر هذه التسمية غير جيّدة.

تبنت هذا الحكم أيضا سامية الدريدي في كتابها "الحجاج في الشعر العربي القديم"، وأدى هذا الغموض حسبها إلى اتساع مجالها "... ومن هنا يبدو الحقل المعرفي للبراغماتية شاسعا، إذ يمكن أن يضمّ اللسانيات والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي (...) وتبدو المباحث البرغماتية منشغلة بكلّ ما تثيره هذه المجالات المعرفية من إشكالات وما تخوض فيه من قضايا" [2]. فقد أدى هذا التنوع والتداخل بين العلوم إلى اختلاف وسائل البحث وأهدافه من باحث إلى آخر.

يرجع الدارسون المفهوم الحديث للمصطلح إلى الفيلسوف الأمريكي "تشارلز موريس" ويذهبون إلى أنه استخدمه سنة 1938م للدلالة على فرع من فروع دراسة اللّغة «يعود مصطلح التداولية (Pragmatic) بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس (Charles Moris) الذي استخدمه سنة 1938م، دالًّا على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيمة Semiotics...»[3]، أما الفروع الثلاثة فيريد بها: علم التراكيب، علم الدلالة وكذا التداولية، غير أنّ كلمة التداولية خارجية عن هذا التحليل فهي تنتمي إلى التقاليد الفلسفية ف"مصطلح التداولية خارجي عن هذا التحليل فهو آتٍ من الفلسفة التقليدية الأمريكية ومن التيار التداولي (Pragmatiste). الممثل بـــــــ "شارل سندرس بيرس" أو "وليام جيمس"، تطوّرت التداولية انطلاقا من أعمال الفلاسفة، المناطقة واللسانيين »[4]، فالتداولية كما هو مذكور تنتمي إلى حقل الفلسفة وليس إلى السيميائيات وواضع هذا الاتجاه هو الفيلسوف الأمريكي ش. س. بيرس.كما جاء في الهامش (ص 14) وعرفت التداولية تطوّرها

---

[1]– فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 185.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد 2008، ص 16.

[3]– زين كامل الخويسكي، محمود أحمد نحلة وأخرون، في اللّغة والأدب، ب.ط، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ب. ت، ص 167.

[4]–Vlolaine de Nuchèze& Jean–Marc Colletta, Guide terminologique pour l’analyse des discours, Peter Lang, Bern 2002, P 145.

على يد الفلاسفة، أمثال شارل موريس، جون ل. أوستن ... وغيرهم، ومناطقة ولسانيين أمثال أوزواد ديكرو ... وغيرهم.

مرّ مفهوم التداولية بعدّة مراحل في اللّغة الفرنسية، فقد استعمل في بداية الأمر في ميدان الحقوق وهذا منذ العصور الوسطى، وابتدءًا من القرن 17م دخلت الميدان العلمي وفي الآونة انتقل المصطلح إلى اللّغة العادية.[1]

ذكر في "قاموس تحليل الخطاب" الذي أشرف عليه "شارودو" و"مانغونو" حوالي خمسة[*] تعريفات للتداولية كونها فرعا من فروع اللسانيات وكونها مكون من مكوّنات الدراسة السيميائية، وبأن التداولية تسمح لنا بترجمة الخطابات وفقا للسياق ... وغيرها من الأمور المتعلّقة بهذا المنهج، لكننا سنذكر تعريف "فليب بلانشيه" كونه مختصر وشامل يقول: "ليست التداولية (حقلًا فرعيًّا) يحدد موضوع دراسة جديدة، إنّها "مقاربة" مستجدة، تتأسس على تعددية منهجية (ذهاب وإياب استنتاجي/ تأليف) لكامل الحقل، ونتبيّن من خلال مفهوم التواصل أنّ موضوع التداولية هو الإنسان نفسه وهو يباشر أدواره الاجتماعية" [2]، فالباحث يرى أنّ التداولية تقوم على تعددية المنهج وموضوعها ليس بالموضوع الجديد، فهي تهتم بالعملية التواصلية أي بالإنسان وهو يتواصل مع أفراد المجتمع من خلال التخاطب معهم، والتداولية أخذت ما هو موجود في الحقول المعرفية المختلفة بما يخدم توجهاتها، وألفت بين تلك الحقول لذلك كان لكل باحث تداولي طرق بحثه وأهدافه.

تشتمل التداولية على عدد من المفاهيم، أمّا أهمّ هذه المفاهيم: مفهوم الفعل، مفهوم السياق ومفهوم الانجاز: "مفهوم الفعل، وينتبه إلى أنّ اللّغة لا تخدم فقط، ولا في البداية، ولا خاصة، تمثيل العالم، بل تخدم انجاز أفعال، فالكلام هو أن نفعل، وبمعنى واضح: تدشين معنى، والقيام على كل حال بـــــ "فعل كلام"، مفهوم السياق، ونقصد به الوضعية الملموسة التي توضح وتنطق من خلالها مقاصد تخص المكان والزمان، وهوية المتكلمين...وكلّ ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم وتقييم ما يقال (...) مفهوم الانجاز، ونقصد بالانجاز، طبقا للمعنى الأصلي للكلمة، انجاز الفعل في السياق، إمّا بمحادثة قدرات المتكلمين، أي معرفتهم وإلمامهم بالقواعد؟ وإمّا بتوجب إدماج التمرس

---

[1]– Voir, Jean–Micheal Gouvard, La Pragmatique, P 4.

[*]– Voir, Patrick Charaudeaux Dominique Maingueneau, Dictionnaires d'Analyse du Discours, Edition du Seuil, Paris 2002, P 454, 456.

[2]– فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 185.

اللساني بمفهوم أكثر تفهما، كالقدرة التواصلية" [1]، تلحّ التداولية على البعد الانجازي للّغة، فهي تعتبر الكلام فعلا، فالمتكلّم يفعل في السامع؛ أي يحدث لديه انفعالا ما يقوده إلى القيام بفعل ما، وخير ما يوضح هذا المفهوم هو أفعال الكلام والتي بمجرد التلفظ بها نكون قد قمنا بفعل ما أو دفعنا المتلقي إلى القيام بفعل ما، أمّا السياق فله مكانة كبيرة في النظرية التداولية فهي تصرّ على الدور الذي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعي، وعلى الأثر الذي يتركه هذا العالم في العملية التخاطبية وفي اللّغة بصفة عامة.

يجمع الباحثون على اتساع مجال التداولية إذ "أنّ مجال التداولية أو التيار التداولي يغطي مجموعة من التوجهات في البحث تتجاوز حدود اللسانيات السوسورية والبنوية، من بينها سيميوتيكا بيرس، نظريات الحديث (بنفنيست) نظرية أفعال الكلام"[2]، فالتداولية تجاوزت حدود اللّسانيات التي أسّسها فردنان دوسوسير، وإنما استمدت مفاهيمها من تيارات أخرى كأعمال بيرس وبنفنيست ووصلت فيما بعد إلى نظرية أفعال الكلام مع أوستن وسورل.

يجعل "فان دايك" التداولية تختص بدراسة أفعال الكلام ووظيفة الملفوظات: "تختص البراجماتية بوصفها علمًا بتحليل الأفعال الكلامية ووظائف منطوقات لغوية وسماتها في عمليات الاتصال بوجه عام، هذا العلم الذي بدأ تطوّره على نحو صحيح من السنوات العشرين الأخيرة، له خاصية التداخل مع عدّة تخصصات أخرى وقد حفزته علوم الفلسفة واللّغة والانثروبولوجيا، بل علم النفس والاجتماع أيضا" [3]، بعدما يذكر مجال التداولية ووظيفتها يشير إلى مختلف الميادين العلمية التي أدلت دلوها في هذا المجال، فالتداولية أخذت من كل ميدان بعض المفاهيم والإجراءات وتعنى التداولية "... بخصائص استعمال اللغة أي الدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المستقبلين والنماذج الاجتماعيــة للخطــاب وموضوعه (...) وذلك بمراعاة الخصائص التركيبية

---

[1]– حفناوي بعلي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، ترويض النص وتقويض الخطاب، ط 1، أمانه عمان، الأردن، 2007، ص63–46.

[2]– خولة طالب الإبراهيمي، عن التداولية، مجلة التبيين، تصدر عن الجاحظية، ع 18، سنة 2002، ص 63–64.

[3]– تون أ. فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، ط 1، دار القاهرة للكتاب، القاهرة 2001، ص114.

الـدلالية ..."[1] فهذه الفقرة تـوضّح تداخـل مختلف الميادين والعلوم مع التداولية، فعلم الـنفس يسمـح لنا ويمكننا من دراسة الدوافع النفسية للمتكلمين، وكذا ردود أفعال المتلقّين، وعلم الاجتماع يمكننا من معرفة النماذج الاجتماعية، وسيلتنا في ذلك اللّغة، من خلال دراسة التراكيب والدلالات موظفين في ذلك ما أنتجته علوم اللّغة.

ومن بين المنظّرين الأعلام الممثلين للتداولية، نجد الفيلس وفان: أوستن (Austin) وسورل (Saerle) وكذا عالم الاجتماع غوفمان (Goffman) وكذا غمبرز (gumperz) المختص في اللّسانيات الاجتماعية الأثرولوجية.

أدّى عدم الاستقرار في نشأة التداولية إلى جعلها تداوليات ممّا فتح أمامها رهانات عديدة وجعل تطوّرها انطلاقا لا يحدّ، وتنوعها غير محصور وامتدادها غير محدود.

لا يمكن للحديث عن التداولية أن تسعه هذه الصفحات المعدودة، لكننا أثرنا الاختصار كون المقام لا يسمح لنا بأكثر من هذا ونختم حديثنا في هذا الموضوع بقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: "... إنّ الدّرس اللّغوي التّداولي يدرس المنجز اللّغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، لأنّ اللّغة لا تؤدي وظائفها إلاّ فيه، فليست وظائف مجرّدة، وبما أنّ الكلام يحدث في سياقات اجتماعية فمن المهمّ معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز".[2]

يعطي المستعملون القيمة الحقيقية للملفوظات وليس اللّغة بحدّ ذاتها، ل ذلك لابدّ على الدّارس التداولي مراعاة السياق في تحليله وعليه تحديد علاقة النص بسياقه.

---

[1]- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، ط1، جدار للكتاب العالمي، الأردن 2009، ص 93-94.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2004، ص23.

الفصل الأول

الفصـــل الأول: نـظـــريــــة الــحجــــاج

1 - الحجــاج فــي التــراث الغــربــي والعــربــي

1-1 - الحجاج في التراث الغربي

1-1-1 - الحجاج قبل أرسطو

1-1-2 - الحجاج عند أرسطو

1-1-3 - الحجاج بعد أرسطو

1-2 - الحجاج في التراث العربي

1-2-1 - الحجاج في اللّغة

1-2-2 - الحجاج في البلاغة

2 - الحجــاج عنــد المحــدثيــن

2-1 - عند بيرلمان وتيتيكاه

2-2 - عند ميشال مايير

2-3 - عند أوزوالد ديكرو وجون كلود أنكسمبر

3 - الإستــراتيجيـــة الحجــاجيــة

3-1 - مفهــومهــا

3-2 - مجــالهــــا

3-3 - وظيفتهـــــا

3-4 - مــراحلهــا

3-5 - الهدف منها

تعدّ نظرية الحجاج من النظريات القديمة الحديثة، فهي قديمة المنشأ تعود إلى أفلاطون والسفسطائيين،أعادت التداولية بعثها من جديد وألّف باحثون محدثون عدّة مؤلفات حولها في اتجاهات مختلفة: بلاغية مع "بيرلمان" و"تيتيكاه"، منطقية مع "مايير" ولغوية مع "ديكرو".

لا ندّعي أنّنا سنلّم بهذه النظرية إلماما تامّا لسبب واحد وهو أنّ هذه النظرية مستمرة في التأسّس والتشكّل، بل سنكتفي بإلقاء نظرة سريعة على نشأتها في الثقافة الغربية وسنركز على "أرسطو" كونّه من نظّر لهذه المسألة في حين أشار إليها "افلاطون" إشارة في مناظرة "قرياس" وكان حجاج السفسطائيين حجاجًا مغالطيا، وسنركّز على ثلاثة باحثين من المحدثين وهم: "بيرلمان" في مؤلفه: مصنّف في الحجاج، البلاغة الجديدة الّذي ألّفه مع "تيتيكاه"، "ميشال ماير" من خلال كتابه: Logique, langage et argumentationو "أزوالدديكرو" الذي ألّف مع "جان كلود أنكسمبر" (L’argumentationdans la langue).

سنعرّج في خضم ذلك على جهود علمائنا العرب في ميدان الحجاج وكيف تفطنوا إلى: مكانة السياق ودوره في إنشاء الخطاب، فقد وضع الجاحظ شروطا للخطيب كي يتمكن من قلوب وعقول السامعين ويحقّق أسمى أهداف الحجاج ألا وهو الإقناع.

سنركز بعد ذلك عن الإستراتيجيةالحجاجية التي تمثّل الطريق الّذي يسلكه المحاجج في توزيع حججه بمختلف أنواعها وكيفية استخدامها والمراحل التي يتّبعها قصد تحقيق هدفه وهو إقناع المتلقين.

1 -الحجاج في التّراث الغربي والعربي:

1 -1 -الحجاج في التّراث الغربي:

1 -1 -1 -الحجّاج قبل أرسطو:

يعدّ الحجاج من أقدم مواضيع البلاغة الكلاسيكية، فالمجتمع اليوناني مجتمع الخطابة "إنّ كلّ شيء في أثينا كان خاضعا للشّعب" وأنّ "الشّعب كان خاضعا للخطباء" لقد كان الكلام في الجمعيات المختلفة وأمام المحاكم هو السيد الأعلى (...) وكانت الوسيلة الوحيدة، حتى منتصف القرن الخامس، لتعلّم استعمال هذا السلاح الثمين، الاستعداد له ببطء بممارسة الأمور العامة ومحاكاة الخطباء أصحاب الخبرة"[1]،

---

[1]– محاورة جورجياس، أفلاطون، ترجمة محمد حسين ظاظا، ب.ط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر 1970، ص11.

فامتلاك فنون الخطابة يتطلّب مدّة طويلة ويقتضي محاكاة وتقليد الخطباء أصحاب الخبرة في هذا المجال، إلاّ أنّ الأمور تغيّرت مع السفس طائيين والّذين يعتبرون "حركة فلسفية وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميّز روادها بالكفاءة اللّغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية، ويتجلّى ذلك من خلال تسميتهم الّتي كانت تعني الحكيم الخبير بكلّ فنّ وأسلوب" [1]، فلعبوا دورًا كبيرًا في تطوير البلاغة القولية والحياة الفكرية اليونانية وأولوا الطرق الحجاجية اهتماما خاصًا، ممّا أثرى المعارف اليونانية الفلسفية "وقد لعب وجودهم دورًا كبيرًا في تطوير البلاغة القولية التواصلية خاصة، والحياة الفكرية اليونانية عامة، فقد كانوا يعقدون نقاشات فلسفية ذات منزع لغوي "توليدي" للأفكار، الأمر الذي أسفر عن اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجيةوالاقناعية من ناحية، وأدّى إلى تراكم معرفي كبير شكّل النواة لمعظم الدراسات القديمة والحديثة للفلسفة اليونانية من ناحية ثانية". [2]

أعطى السفسطائيون للإقناع منزلة عالية واعتبروه المقصد المنشود، ويظهر ذلك من خلال محاورة جورجياس مع سقراط:

"سقراط: أصغ إذن إلى ما أدهشني في حديثه، وقد تكون من جهة أخرى محقًا وأنني أسأت الفهم، ألست تقول: أنّك قادر على تعليم البيان لكل من يريد أن يتعلّمه على يدك؟

جورجياس: بلى !

سقراط: وكنت تقول منذ هنيهة: أن الخطيب – حق فيما يمسّ الصحة – أكثر اقناعا من الطبيب.

جورجياس: فعلاً، أمام الجمهور.

سقراط: أمام الجمهور – أي من غير شك أمام من لا يعرفون – إذ أنّه محال تمامًا أن يكون الخطيب أكثر إقناعا أمام من يعرفون من الطبيب.

جورجياس: إنّك على حقّ.

سقراط: وإذا كان الخطيب اقدر على الاقناع من الطبيب، فهو إذن اقدر عليه أيضًا ممن يعرف؟

جورجياس: بالتأكيد !

سقراط: وذلك دون أن يكون هو نفسه طبيبًا، أليس كذلك؟

---

[1]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2008، ص 24.

[2]– المرجع نفسه، ص 24.

جور جياس: بلى".[1]

من خلال هذا المقتطف القصير نلاحظ المكانة الّتي يحتلها الإقناع عند السفسطائيين، فالقدرة على الإقناع تجعلنا متساويين مع المتخصصين حتّى بدون أيّة دراسة لمختلف الميادين الّتي يختصون فيها.

رغم الدّور الّذي لعبه السفسطائيون إلاّ أنّهم قوبلوا بالنّقد من قبل أفلاطون وتلميذه أرسطو فـ"على الرّغم من الدّور الهام الّذي أدّاه هذا التّيّار في إذكاء البحث الفلسفيّ والدّفع إلى دراسة القول، فقد خسر– نتيجة مطاردة أفلاطون له بالخصوص حسب التّفسير الدّارج لدى غالب الدّارسين– كلّ موقع في تاريخ الفكر العربي إلى حدود القرن التّاسع عشر وانطمس المعنى الأصلي للصّفة "سفسطائي" وأضحت مرادفًا لـ"الحجّاج الزّائف" عند الغربيين وعند العرب" [2]، أصبحت السفسطة مرادفًا للحجاج الزّائف، فهم يملكون القدرة على الإقناع حتّى ولو كان رأيهم غير صائب.

سار "أرسطو" على خُطى أستاذه "أفلاطون" وواصل نقد السفسطائيين إلاّ أنّ بينهما اختلاف كبير فــ"حين ألّف أرسطو في الجدل طرق سبيلا بكرا فالجدل الموافق لتصورّه كان يُمارس بأثينا دون أن تكون هناك تـآليف تصف قواعده، لذلك أرسى في دراسة هذه الممارسة القوليّة المفاصل التي رأى وبنى أصول هذا المجال الحجّاجي دون أن يضطرّ إلى مراجعة ما كُتب في الموضوع قبله".[3]

لقد سلك أرسطو طريقًا جديدًا في التأليف في موضوع الجدل لم يكن معروفًا من قبل، أي لم يؤلّف بطريقته من قبل رغم أن ذلك الحجاج الذي ألّف عنه كان يمارس بأثينا لكن لم تكن هناك مؤلفات ترسي قواعده لذلك لم يكن عليه الرجوع إلى المؤلفات السابقة.

1 1 2 – الحجاج مع أرسطو:

أحـدث "أرسطـو" منعرجًا في تاريخ التأليـف في صناعة الخطابة (La rhétorique) وهو منعرج أراده في التّصور والممارسة، يقول:"إنّ الّذين يكتبون حول الخطابة اليوم، لم يتناولوا، إلاّ قسمًا ضعيفًا منها، فالتصديقات (Les preuves) هي الوحيدة التي تملك حقـا صفـة تقنيـة، أمّا الباقي فكلّها مجرّد زوائد

---

[1]– أفلاطون، محاورة جورجياس، ص 49–50.

[2]– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي حمّود، ب.ط، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ب.ت، مجلد XXXIX، ص 51–52.

[3]– المرجع نفسه، ص 116.

(Accessoires)، غير أنّهم لا يقولون شيئًا عن الضمير، والّذي هو عمود التصديق، وفي كثير من الأحيان تكون تدخلاتهم تتعلّق بنقاط غريبة عن جوهر المسألة" [(1)]، فهو -أرسطو- يعتبر أن المصنفين في الخطابة من قبله اهتموا بجانب ثانوي منها يقول ابن رشد: "وهؤلاء فلم يتكلموا في الأشياء الّتي توقع التصديق الخطبي بالجملة ولا في الضمائر الّتي هي أحرى بذلك، وإنّما تكلموا، فأكثروا، في أشياء خارجة عن التصديق وإنّما تجري مجرى الأشياء المعينة في وقوع التصديق مثل التّكلم في الخوف والرّحمة والغضب وما أشبه ذلك من الانفعالات النفسانيّة الّتي ليست معدّة نحو استمالة الحكام والمناظرين، ولذلك كانت كأنّها موطّئة للتصديق، لا فاعلة له" [(2)]، نستخلص أنّهم ركّزوا على الأمور الّتي تؤثر على الحاكم أو المناظر "فجلوا مركز صناعة الخطابة التأثير، فالخطابة عندهم كانت خطابة تأثير (أو خطابة توجيه Rhétorique Manipulation وخطابة فتنة RhétoriqueSéduction كما نقول اليوم)" [(3)] وهو ما ير فضه أرسطو حيث يطالب بعدم التأثير على القاضي "لا يجب أن نجعل القاضي يغيّر ر أيه بدفعه إلى الغضب، إلى الكره، إلى الشّفقة..."[(4)]بل يجب أن تذكر له الحقائق كما هي وهو يحكم عليها بناء على ذلك.

يشير أرسطو في بداية حديثه إلى علاقة الخطابة والجدل وكذا دور وظيفة الخطابة، يقول "الخطابة تتعلق بالجدل، الواحدة مثل الأخرى تهتم ببعض الأشياء المشتركة في بعض النقاط عند جميع النّاس، والّتي يمكن معرفتها دون اللّجوء إلى أي علم محدّد ومن ناحية أخرى كل النّاس تمارسهما، فالجميع من ناحية يحاول معارضة أو مساندة فكرة ما، الدفاع، الاتهام" [(5)].فكلّ من الخطابة والجدل تؤمن غاية واحدة وهي مخاطبة الغير، فهما وسيلتان تمكنان الإنسان من التخاطب مع غيره، وأنّهما مُتحان لكلّ النّاس وليسا قصرًا على صنف معين من الأشخاص، فهما ليسا منفردين بذاتهما كباقي العلوم الّتي لها موضوعات خاصة؛ فالخطابة والجدل ينظران في جميع المواضيع

---

(1)– Aristote, Rhétorique, Introduction de Michel Mayer, Traduction de C.E, Ruelle Revue par P. Vanhemelych, Commentaire de B. Timmermans, Librairie Générale Française, Paris 1991, P 76.

(2)– ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ب.ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960، ص 05.

(3)– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 117.

(4)–Aristote, Rhétorique, P 77.

(5)–Ibid, P 75.

وتلبيان حاجة الناس مهما اختلفت المواضيع التي يطرقونها من مساندة ومعارضة، من دفاع أو اتهام.

تشير سامية الدريدي إلى أنّ العنصر المشترك بين الخطابة والجدل هو الحجاج فهي تنوّه إلى وجود علاقة بين الحجاج والجدل والخطابة تقول: "علاقة الحجاج بمجالين آخرين هما الخطابة والجدل فقد أكّد أرسطو وجود الحجاج في الخطابة كما في الجدل، بمعنى آخر إنّ الخطابة تعتمد الحجاج شأنها في ذلك شأن الجدل مع اختلاف كامن في بنية الحجاج في كليهما، فهو في الخطابة حجاج بالمثل خاصة ولكنّه في الجدل حجاج بالقياس في أغلب الأحيان (...) وما يهمّنا أن الحجاج بهذا الشكل يصبح فعلاً قاسمًا مشتركًا بين الخطابة والجدل" [1] فالحجاج قاسم مشترك بين الخطابة والجدل، لكن لكلّ منهما حجاج خاص به ففي الخطابة نجد الحجاج بالمثل أمّا في الجدل فهو حجاج بالقياس.

اتّسم تناول أرسطو للحجاج بالمنطقية فـ "دراسة الحجاج عنده تنزّلت في مشروع حاضن للأرغانون[*] جميعا، هو مشروع دراسة الاستدلال عموما واستعراض قواعده المنتجة في أجناس الأقاويل الجامعة وهي أقاويل تستعمل في فضاءات حياة الإنسان المختلفة وبذلك كان التناول الأرسطي للحجاج تن اولا منطقيا بالأساس وإن وسِع في "الخطابة" بالخصوص روافد نفسية اجتماعية وروافد أخلاقية وروافد سياسية"[2].سعى أرسطو إلى دراسة الاستدلال وقواعده من خلال استقراء الأقاويل التي يستعملها النّاس في مختلف الميادين ولهذا السبب جاء تناوله منطقيا، لكن رغم ذلك فإنّه لم يهمل الجانب الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والتي نجدها حاضرة في الخطابة فأرسطو قد "...حوّل [أرسطو] مسار الخطابة والحج ــاج عامة من كونهما قائمين على التأثير Séduction والتحريض Manipulation والتملّق Flatterie إلى كونهما عمليتين بره ــانيتين عقليتيــن من جه ــة، وداخليتي ــن في مجال الاجتماع الإنساني

---

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 18.

[*]تعني كلمة "الأرغانون" الآلة، في بعض معانيها، لكنها أصبحت مصطلحًا متداولا للدلالة على كتابات أرسطو المنطقية، إضافة إلى مدخل أو مقدمة لــــ: فورفوريس، ويشمل الأ رغانونإيساغوجي (المدخل)، كاتيغوريان (المقولات)، باري أرمينياس (العبارة)، أنالوتيكا الأولى (التحليلات الأولى، القياس)، أنالوتيكا الثانية (التحليلات الثانية، البرهان)، توبيكا (الجدل)، سوفستيكا (السفسطة)، ريتوريكا (الخطابة)، بويتيكا (الشعرية). محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، هامش ص 31.

[2]– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 105.

من جهة ثانية"[1].فقد كانت الخطابة والحجاج عامة في زمنه وقبل زمانه تقومان على التأثير في الجمهور بإثارة عواطفهم وكذا تحريضهم على تبني موقف ما أو تقديم حجج زائفة كما كان يفعل السفسطائيون فحاول أرسطو تخليص الخطابة من هذه الأمور وجعلها عملية برهانية عقلية من جهة، كما أدخلها في الميدان الاجتماعي من ناحية ثانية.

تعدّ البلاغة الأرسطية أساسًا فلسفيا معرفيا لأغلبية النظريات البلاغية واللغوية التي جاءت بعدها بشكل عام ولنظرية الحجاج بشكل خاص.

1 1 3 - الحجاج بعد أرسطو:

شكّلت الحجج المصنّفة من طرف أرسطو وخطباء (Orateurs) اليونان والرومان بالنظر إلى طبيعتها (واقعية أو محتملة) (Affective/Rationnelle)، بالنظر إلى مصادرها (مواضع مشتركة أو متعلّقة بالنوع) (Lieuxcommunsoudépendant du genre)[(2)]، - شكّلت - موضوعا لدراسات طويلة، فالتطلّع على مختلف البحوث التي تناولت موضوع الحجاج نجدها قد اعتمدت على أعمال أرسطو خاصة.

اهتمّ بدراسة الحجاج الفلاسفة واللّغويون؛ يقول "فليب بروتن" (Philippe.Breton): "دراسة الحجاج، باعتبارها فرعا من الخطابة القديمة، كانت لفترة طويلة محلّ اهتمام الفلاسفة من جهة، واللّغويين من جهة أخرى".[(3)]

تعتمد كلّ أنواع الخطب: المشاورية، القضائية، التثبيتية، على الأقسام الخمسة للبلاغة: "البحث عن الأفكار والحجج، وضع وتنظيم العناصر، تشكيل النص، الفعل أو التجسيد الشفوي، الذاكرة أو تقنيات الارتجال"[(4)]، فكل نوع من الخطب يعتمد على هذه الأقسام الخمسة، ونلاحظ حضور عنصر المشافهة والذي ركّزت عليه البلاغة القديمة.

دخل الحجاج في العصر الحديث مرحلة جديدة حيث: "لم يعد مقتصرًا على المجالات الشفوية الّتي يكون فيها المتكلم حاضرًا أمام جمهوره، وإنّما أصبح خاصية جوهرية في الكتابات الفنية والأدبية والإنسانية عامة التي على المؤلف - الكاتب، أن يعمل على تعويض الغياب بوسائل لغوية بلاغية ذات فعالية في حمل القارئ -

---

[(1)]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 41.

[(2)]- Voir, Fançoise Arcod-Dutard, La lingustique litteraire, P 45.

[(3)]- Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, 3[ème]édition, La découverte, Paris 2003, P8.

[(4)]- Fançoise Arcod-Dutard, La lingustique litteraire, P 45.

المتلقي– على تحقيق الخطاب" [1] انتقل الحجاج مع البلاغيين المعاصرين من مجال المشافهة إلى ميدان الكتابة، فأصبح سمة تتّسم بها الكتابات الفنية والأدبية، غير أنّه كان على الكاتب تعويض غيابه عن الجمهور بوسائل لغوية وأساليب بلاغية تجعله حاضرًا في الخطاب وتجعله مؤثّرًا في القارئ حيث ينقاد إلى مراميه – الكاتب –.

ظهر في النصف الثاني من القرن 20م، باحثون بعثوا البلاغة بعد أن اختفت فترة من الزمن ونذكر منهم ش. برلمان (C.Perleman) وألبروب ث تيتكاه (L.Ollerechts.Tyteca) عام 1970م، س. تولمين (S.Toulmin) سنة 1958م، بالإضافة إلى ج. ب غرايس (J.B.Grize) و أ. ديكرو (O.Ducrot) في السبعينات.

رغم تنوع وظائف البلاغة ومشاغلها إلاّ أن المظهر الحجاجي l'Aspectargumentatif يبقى أبرز مظاهر الفكر البلاغي في مختلف مراحله وخاصة المرحلة المعاصرة.

1 2 – الحجاج في التراث العربي:

يجد المتطلّع على المصادر العربية التراثية، حديثًا عن الحجاج، وتعريفًا للحجة، وأخلاق المُحاجِج، وعدّة مسائل تتعلّق بهذا الموضوع حتى وإن اختلف المصطلح المستعمل من قِبَلِهم، وكان الجاحظ من بين الأوائل الذين تناولوا هذا الموضوع رغم أن الأسلوب الحجاجي، كان مستعملاً عند العرب كتابة ومشافهةً.

1 2 1 الحجاج في اللّغة:

جاء في لسان العرب: "حجج: الحجّ: القصد (...) وحججت فلانا واعْتَمَدْتُه أي قصدته"[2] فمن معاني (الحج) القصد، فنقول قصد مكانًا ما أي توجه إليه وقصد شخصًا ما أي لجأ إليه.

لم يتوقف ابن منظور عند هذا الحدّ بل ذكر مفاهيم أخرى منها: "ويقول الزهري: ومن أمثال العرب: لجّ فحجّ؛ معناه لجّ فغلب من لاجه بحججه. يقال: حاججته أحاجّه حجاجًا ومحاجّة أي: غلبته بالحجج الّتي أدليت بها ..." [3] فمعنى الحجاج عند الأزهري هو تغلّب المحاجج على خصمه بالحُجَج ثم يقول: "التّحاج: التخاصم؛ وجمع

---

(1)– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 204.

(2)– أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، المجلد الثاني، ط1، دار صادر، بيروت 1992، ص 226 (مادة حجج).

(3)– المصدر نفسه، ص 228.

الحُجَّة : حُجَجٌ وحجاجٌ وحاجّه مُحاجّة وحجاجًا : نازعه الحُجَّة وهو رجل محجاجٌ أي جدِلٌ"[1] الحجّاج والمحاجة هوالمنازعة بالحجج.

نلاحظ أن معنى الحجاج في اللّغة العربية ينطوي على مفهومين: القصد والاستدلال يقول طه عبد الرحمن: "الشاهد على ذلك ما يختص به اللّسان العربي من استعمال لفظ واحد للدلالة على معنى "القصد" ومعنى "الاستدلال" معًا، وهو بالذّات الفعل : "حجّ" الّذي يفيد "قصد" في قولنا : "حج البيت الحرام" كما يفيد "غلبه بالحجّة" في قولنا: "حاجه، فحجّه".[2] فالقصد من التوجه إلى مكان ما وبلوغه أمّا الاستدلال فيأتي من التغلّب بالحجج على الخصوم.

يذكر ابن منظور كذلك مفهوما للحجّة يقول: "والحجّة: البرهان؛ وقيل: الحجّة ما دُوفِعَ به الخصم، وقال الأزهري: الحجّة الوجه الّذي يكون به الظّفر عند الخصومة (...) واحتجّ بالشيء: اتّخذه حُجّة؛ قال الأزهري: إنّما سمّيت حُجَّة لأنّها تُحَجُّ أي تقصد لأنّ القصد لها وإليها ..."[3] فالحجّة هي الأداة، التي نستخدمها في إثبات آراءنا وجعل الخصوم يتبنون آراءنا وندحض آراء خصومنا فنجعلهم يتخلّون عن تلك الأفكار، وسميت كذلك –حجّة– لأنّنا نقصدها كي نثبت آراءنا.

1 2 2 –الحجاج في البلاغة:

ذكرنا بعض ما جاء في الجانب اللّغوي لمصطلح "الحجّة" و"حجاج"، غير أنّنا نجد جانبا آخر لهذا المصطلح ألا وهو ارتباطه الوثيق بالبلاغة يذكر أبو هلال العسكري في الصناعتين: "وقد قال بعض الهند: جُمَّاع البلاغة: البصرُ بالحجّة، والمعرفة بمواقع الفُرصة. ومن البصر بالحجّة أن يَدَع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعرًا، وكانت الكناية أحضر نفعًا"[4] يتّضح من هذا التعريف أن الظّفر بالحجّة هو جزء من البلاغة بالإضافة إلى تحيّن الفرص المناسبة، كما يشير أبو هلال إلى أن الكناية عن الحجّة أنفع من الإفصاح بها.

كان الجاحظ من بين الأوائل الّذين تفطنوا لمسألة الحجّاج وما يؤكد ما ذهبنا إليه قوله: "وقيل لعقيل بن عُلَّفة: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل لأبي المهوس: "لِمَ لا تطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثل النادر إلاّ بيتًا

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، ص 228.

[2]– طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1998، ص 226.

[3]– ابن منظور، لسان العرب، ص 228.

[4]– أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص 21.

واحدًا، ولم أجد الشعر السائر إلاّ بيتًا واحدًا. وقال مَسلَمة بن عبد الملك لنُصيب: يا أبا محجن أما تحسن الهجاء ! قال: أما تراني أحسن مكان عافاك الله، لا عافاك الله... !؟ ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة فقال: أنا على القصار أقدر. وقيل لل عجّاج: مالك لا تحسن الهجاء؟ قال: هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر؟ وقال رؤبة: الهدم أسرع من البناء.وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب والكميت وال عجاج ورؤبة إنّما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم".[1]

ذكر الجاحظ في هذه الفقرة الحجج التي احتجّ بها كل شاعر لمّا سُئِلَ: لماذا لا يطيل الهجاء؟ ففكرة الحجاج كما هو واضح كانت موجودة وانتبه إليها الجاحظ.

نجد من علمائنا العرب الذين يحدّثوا عن الاحتجاج ابن خلدون الّذي يقول في مقدمته: "وأمّا الجَدَال وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرّد والقبول متّسعًا، وكل واحدٍ من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأً..." [2]، فالاحتجاج عنصر من عناصر المناظرة والجدال، وموضوع المناظرة كما أشار ابن خلدون متّسع ويقبل الأخذ والرّد لذلك كان ميدانا رحبًا للحجاج، لكنّه تنبّه إلى أنّ هذا الاحتجاج قد يكون صحيحًا وقد يكون خاطئًا.

عرّف ابن خلدون كذلك علم الكلام بقوله: "وهو علم يتضمّن الحِجاجَ عن العقائد الإيمانية، بالأدلّة العقلية، والردّ على المبتدِعَة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السُّنة" فالحجاج مكوّن أساسي من مكوّنات علم هام ذو مكانة رفيعة بين علوم العرب ونقصد علم الكلام الذي استخدمه العلماء للدفاع عن الدين الإسلامي والسنّة النّبوية الشريفة، وجعل الحجاج أداة من أدواته لَدليل على مكانته عن د العرب وعلى أنه أداة فعالة في المسائل الخلافية والتي عليها الجدال؛ ومثال ذلك قضية إعجاز القرآن الكريم، إذ أن كلّ من ألّف في هذا الموضوع استخدم الحجاج لإثبات آراءه ودحْضِ آراء خصومه.

وضع علماؤنا العرب قواعدا للحجاج نظرًا إلى مكان ته عند هم، كما حدّدوا صفات المحاجج ليكون له الأثر المطلوب.

---

[1]– أبو عثمان بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق حسن السندولي، ب.ط، دار المعارف، تونس 1990، ص178.

[2]– عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ب.ط، دار الفكر، لبنان 2004، ص 439.

يذكر الجاحظ في البيان تعريفا للبلاغة، يتحدّث فيه عن شروط البلاغة يقول: "أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللّفظ، لا يكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا أو فيلسوفا عليمًا ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح وعلى جهة الاستطراف والتّ ظ رف"[1]. يذكر الجاحظ هنا صفات الخطيب البليغ وهي: رباطة الجأش أي هادئ في كلامه ومتمهّل في منطق ه، سكون الجوارح فعلى المحاجج أن يتحكّم في عواطفه وانفعالاته، قلّة اللّحظ تعني عدم مراقبة السامعين والنّظر إليهم بمؤخّرة العين، تخيّر اللّفظ إذ على المحاجج انتقاء ألفاظه لتكون مناسبة للمقام الذي يخطب فيه.

وعلى الخطيب البليغ معرفة مقامات المتكلمين، إذ عليه أن يكلّم كل شخص بما يناسبه وأن لا يخلط بين المخاطبين فعليه أن يكلّم الملوك بما يناسبهم ويكلّم عامة النّاس بما يواتيهم.

كما يشترط الجاحظ في الخطيب عدم الإفراط في تدقيق معانيه، كي يتوصّل إلى مراده أمّا من ناحية اللّغة فعليه أن لا ي ه تمّ بتهذيبها وينمّقها كل التنميق إلاّ إذا خاطب حكيمًا أو فيلسوفًا معتادًا على الحذف والتلميح عارفًا بالمنطق، متخصصًا فيه.

يجب على الخطيب التحلّي بهذه الشروط، ولمّا كان الحجاج مرادفًا للبلاغة كما جاء عند أبو هلال العسكري جاز اعتبار هذه الشروط شروط المحاجج، فالخطيب عندما يلقي خطبته فهو يهدف من زاوية ما إلى التأثير وإقناع الجمهور برأيه.

ذهب ابن خلدون نفس المذهب وطالب بضرورة وضع قواعد تضبط عملية الحجاج نظرًا لكون الحجاج يحتمل الصحة أو الخطأ يقول: "... ومنه –الاحتجاج– يكون صوابًا ومنه يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يَقِفُ المتناظران عند حُدودِها في الردّ والقبول، وكيف يكون حالُ المستدلّ والمجيب، وحيث يسُوغ له أن يكون مستدلاّ، وكيف يكون مخصوصًا منقطعًا، ومحلُّ اعتراضِه أو معارضتِه، وأين يجب عليه السُّكوتُ لخصمهِ الكلامُ والاستدلالُ، ولذلك قيلَ فيه إنّه معرفةٌ بالقواعد من الحدود والآداب، في الاستدلال الّتي يتوصّل بها إلى حفظِ رأي أو

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 91.

هدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره" [1] فابن خلدون يش ترط وضع قواعد تضبط عملية الاحتجاج (وهو يقول الجدال)، ودعا إلى ضرورة وضع آداب وحدود يتقيّد بها المتناظران أثناء جدالهما، وعلى المتناظران معرفة أوقات الأخذ والرّد والسكوت أو الاستدلال.

أشار الجاحظ إلى مسألة هيئة المخاطب ودورها في تحقيق الإقناع يقول: "قال سهل بن هارون: لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيًا ذا لباس نبيلا وذا حسب شريفًا، وكان الآخر قليلاً قمينًا وب اذّ الهيئة دميمًا وخامل الذّكر مجهولاً ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب به، ولا كان الإكثار في شأنه علّة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيئس ومن حسده أبعد..."[2]

يجري الجاحظ مقارنة بين خطيبين احدهما جميل المظهر ذا حسب شريف ولباس فخم، والآخر قبيح المظهر وذميم الخَلق، رثّ الثياب مجهول النسب، لكن خطابهما متساو من حيث البلاغة والصواب ، من حيث التأثير وجلب انتباه السامعين: فيلخص إلى نتيجة مفادها أن الرجل الد ميم الخلق يجذب انتباه السامعين أكثر من الرجل الجميل النبيل، وذلك أنّ المستوى الذي يملكه الرجل المجهول سيدهشهم وسيعجبون به بعدما يكونوا قد تعجبّوا منه، كما أن مستواه سيعلى من شأنه بينهم ونتيجة لذلك سيكثرون من مدحه لأنهم احتقروه لما رأوا هيئته ولم يتوقّعوا أنّ له من الأسلوب ما يجاري به أشرف الرجال وأنبلهم.

ذكرنا هنا بعض الإشارات عن الحجاج في التراث العربي، لك ن يبقى الكثير منها لمن تعمّق واسترسل في البحث عنها، فنحن لضيق المقام آثرنا الإيجاز و ألقينا نظرة خاطفة عن هذا الزّخم المعرفي الّذي تمتاز به المؤلفات العربية.

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص 439.

[2]- الجاحظ ، البيان و التبيين، ج 1، ص 87-89.

2 الحجاج عند المحدثين:

2 1 عند بيرلمان وتيتيكاه:

بعدما شغل الحجاج مكانة كبيرة مدّة طويلة من الزمن، بدأ بالاختفاء شيئا فشيئا إلى أن بعثها بيرلمان من جديد: "لقد ظلّت المحاجة الموسومة بالبلاغة تعتبر، ردحًا طويلا من الزمن، هنا من أمهات الفنون، وقد ساهمت البلاغة التي وضعها الإغريق (مع السفسطائيين، سقراط، أرسطو، والّتي احتضنها الرومان مثل شيشرون في التأثير على العصر الوسيط أيّما تأثير، كما قيّضت لها أن تتبوّأ منزلة مرموقة في تدريس ما كان يعرف بالإنسانيات الكلاسيكية منذ عهد النهضة (...) غير أنّه بعد ذلك أخذت البلاغة تنأى شيئا فشيء عن التفكير والتعليم (...) تشهد البلاغة منذ عقود من الزمن نوعًا من تجديد النظر الذي لا يخلو من فائدة (...) ويعود الفضل في استعادة البلاغة لصيتها إلى ش. برلمان Perlman أستاذ الفلسفة والقانون بجامعة بروكسل، وذلك منذ نهاية لأربعينيات"[1]، أعاد بيرلمان بعث البلاغة من جديد بعدما انطفأت مع مرور الزّمن وهذا يظهر من خلال عنوان مؤلّفه: "مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة".

اعتمد بيرلمان على ما أرساه أرسطو من قواعد في هذا الميدان: وعن عمل بيرلمان يقول صلاح فضل: "سعى بيرلمان إلى بعث الماضي المجيد للبلاغة"[2]، ثم بعد ذلك يبرّر سبب اختيار بيرلمان لكلمة البلاغة يقول: "وعن سبب اختياره لكلمة البلاغة فهناك سبب آخر أكثر أهميّة وراء اختيار "بيرلمان" لكلمة البلاغة (...) وهو يرتبط بالرّوح ذاتها التي جعلت القدمين يقرنون الجدل بالبلاغة؛ إذ يرون أن الفكر الجدلي موازٍ للفكر التحليلي، لكن الأول يدور حول ما هو محتمل، بدلاً من معالجته للمقولات الضرورية، ولم تتّم الإفادة من فكرة أن الجدل يشير إلى الآراء؛ أي إلى الفروض أو الأطروحات التي يؤديها كل شخص أو يعارضها بنسب متفاوتة، وهذه المقاربة للبلاغة تهدف عنده إلى إبراز حقيقة هامة، وهي أنّ كلّ محاجة برهانية تنمو بالنّظر إلى مستمعين، ولهذا فإنّ دراسة الرأي لا بدّ أن تجد مكانها في هذا المدار"[3]،

---

[1]– إيف جانري، نظريات المحاجة: اكتشاف جديد خصب، ترجمة محمد يحياتن، مجلة اللّغة والأدب، تصدر عن معهد اللّغة العربية وآدابها، عدد 11، جامعة الجزائر، ماي 1997، ص 281–284.

[2]– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1، دار الكتاب المصري، القاهرة 2004، ص 97.

[3]– المرجع نفسه، ص 97–98.

يتّفق بيرلمان مع الدارسين القدماء في ربطهم بين الجدل والبلاغة ويميّزون بين الجدل والبرهان حيث أن الجدل يتناول المسائل المحتملة أمّا البرهان فيتناول المسائل الضرورية الدقيقة، ولمّا كان الجدل يتناول الآراء ووجهات النّظر الّتي تقبل وترفض، تؤيَّد وتُعارَض من قبل مستمعين، ويعدّ المستمع محطّ اهتمام البلاغة؛ فهو عنصر هام جدّا في البلاغة لذلك يرى بيرلمان أن دراسة الآراء لا بدّ أن تدرس في ميدان البلاغة، ولهذا السبب اختيار كلمة البلاغة "... أن بيرلمان يحاول أن يجعل من الحجاج نظرية مطابقة للبلاغة، بحصر هذه الأخيرة فيه، وقد وافقه في هذا التّصوّر العديد من البلاغيين المعاصرين"[1]، فالبلاغة عند بيرلمان هي الحجاج، وقد أيّده فيما ذهب إليه الكثير.

يَشهَدُ لبيرلمان بهذا الفضل – بإعادة بعث البلاغة – الفيلسوف ميشال ميّار (Micheal.Meyer) يقول: "أعاد بيرلمان للبلاغة شرفها عندما أدخلها في إطار الحجاج. وهناك حجاج إ ذا كانت إحدى الملفوظات مدعّمة (Suggérée) بأخرى أو بالوضعية (أو المقام) (Situation)، وهناك استدلال (Démonstration) إذا أدى كل شيء إلى فرض نتيجة ما وجعل هذه النتيجة حتمية (Nécessaire)".[(2)]

يعترف ميار بفضل بيرلمان، ثم يقدّم الموقف الّذي يكون فيه الحجاج والموقف الذي يكون فيه الاستدلال، ففي الحجاج نحاول تدعيم آرائنا بمختلف الحجج، بينما في الاستدلال نبرهن عن رأينا لتكون النتيجة المتوصّل إليها نهائية لا تحتمل الاعتراض.

عرّف المؤلفان (بيرلمان و تيتيكاه) موضوع نظرية الحجاج بقولهما: "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب الّتي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" [(3)]، فالحجاج عندهما هو دراسة التقنيات التي يوظّفها الخطيب في خطابه كي يؤثر في المتلقّي

[(1)]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 108.

[(2)]– Micheal Meyer, Logique, Langage et Argumentation, 2ème Edition, Hachette Université, Paris 1982, P 113.

[(3)]– Chaïm Perlman et Lucie–Olbrechts–Tytica :Traité de l'argumentation–La nouvelle rhétorique, Préface de Michel Meyer, 5ème Edition– Editions de l'université de Bruxelles 1992, P5in – عبد إله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، ص 299.

ويدفعه إلى الاقتناع بالمواضيع الّتي يطرحها عليه أو يزيد من اقتناعه في مسألة قد يراوده الشّك فيها.

ترى سامية الدريدي في هذا الشأن أن المؤلفان ينزلان الحجاج في صميم التفاعل بين الخطيب وجمهوره، وما ذهبا إليه متصل بالخطابة الأرسطية غير أنّهما لم يكتفيا بمجرد الأخذ والتقليد.

يأخذ الحجاج حسب التعريف المذكور من الجدل التماشي الفكري الّذي يقود إلى التأثير الذهني في المتلقي وإذعانه إذعانًا نظريًّا مجرّدًا لفحوى الخطاب وما جاء فيه من آراء ومواقف وهو يأخذ من الخطابة أيضًا توجيه السلوك أو العمل والإعداد له والحض عليه، ولكنّه يظلّ مختلفا عن الخطابة والجدل من جهة كسره للثنائية التقليدية وجمعه بين التأثير النّظري والتأثير السلوكي العمليّ، فهو خطابة جديدة بالفعل متّسعة.[1]

يأخذ الحجاج من الخطابة والجدل، ولكنه يختلف عنهما؛ فهو يأخذ من الجدل ذلك التسلسل الفكري الذي يحقق التأثير الذّهني في المتلقي وخضوعه لمحتوى الخطاب خضوعًا نظريًا، أمّا من الخطابة فيأخذ منها التأثير في السلوك والحض على القيام بفعل ما، فهو يأخذ التأثير الذّهني والنّظري والتأثير الفعلي.

يلجأ المتكلّم إلى الحجاج إذا راوده الشّك في صحة مسألة من المسائل يقول بيرلمان وتيتيكاه: "أنّه ما من محاجّة إلاّ والباعث عليها وجود شكّ في مدى صحّة فكرة ما، إن المحاجّة تفترض أن هنالك فكرة م ا ينبغي تدقيقها والتشديد عليها وبدون ذلك التدقيق والتشديد تبقى غامضة وغير واضحة بما فيه الكفاية فلا يمكن فرضها على المتلقي الفرض القويّ الّذي ينبغي أن تفرض به" [2]، فالحجاج يأتي في المسائل التي تحتاج إلى التوضيح أو التدقيق أو الإثبات حيث لا يمكن أن نفرض الآراء والأفكار بالقوة على المتلقي بل يجب توضيح المسائل وإثباتها حتى يقتنع بها.

---

[1]- يُنظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 22.

[2]- Chaïm Perlman et Lucie-Olbrechts-Tytica :Traité de l'argumentation-La nouvelle rhétorique, P635 in

عبد إله صولة، الحجاج: أطره و منطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة، ص 302.

وعن غاية الحجاج يقول المؤلفان: "إن الحجاج غايته إحداث الــتأثير العملي (EffetsPratiques) الذي يمهّد له التأثير الذهني" [1]، بحيث يبدو المؤلفان يجمعان بين جدل أرسطو وخطابته معًا، فالهدف من الحجاج عندهما هو دفع المتلقي إلى القيام بسلوك معين بعد إقناعه ذهنيا فالأوّل هو مسعى الخطابة بينما الثاني هو مغزى الجدل وبهذا يكون الحجاج جامعًا لهما.

يربط الحجاج بين الفكر والعمل وذلك من خلال التأثير الفعلي الناتج عن التأثير الذهني.

يرى صلاح فضل أن الحجاج عند بيرلمان هو دراسة التقنيات التي تؤثر في المتلقي وإقناعه بما نريد وأنّه لا يجب اعتبار الحجج مجرّد صيغ بسيطة لا قيمة لها يقول: "يروي "بيرلمان" أن نظرية المحاجة لا يمكن أن تنمو إذا تصورنا أن الدليل البرهاني هو مجرّد صيغة مبسطة بديهية، ولذلك فإن هدف نظرية "البرهان Argumentation" لديه هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد على الأشخاص للفروض التي تقدّم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوّع كثافته" [2]، فلو اعتبرنا الحجج أو التصديقات كما استعمل ابن رشد، مجرّد صيغ مبسطة وبديهية فـإن نظرية الحجاج ستزول، فالمتكلّم لا يستعمل هذه الحجج اعتباطيا بل يهدف من خلالها إلى إقناع المتلقي بآرائه أو ترسيخ الأفكار التي تراوده الشك فيها.

تعتبر المقدمات نقطة الانطلاق في الحجاج حيث "يرى بيرلمان أن مقدمات الحجاج هي التي تؤسس نقاط الانطلاق للحجاج (Points de départ de l'Argumentation) ومن أهم هذه المقدمات: الوقائع (Les Faits) والحقائق (Réalités) والافتراضات (Présomptions) والقيم (Valeurs) وهرمية القيم (Hiérarchies des valeurs) والمواضع (Lieux)، فالوقائع بما أنّها ثابتة لا شك فيها فإنّها تصلح لتأسيس نقطة البداية (...) أمّا الحقائق فيعمد إليها الخطيب، والمحاجج بصفة عامة، للربط بينها وبين الوقائع ليمنح حجاجه بداية قوية نافذة (...) أمّا الافتراضات وإن كان مسلّمًا بها حيث من قِبَل المعنيين سلفًا، إلاّ أنّ التّسليم القوي بها في إطار الخطاب لا يكون كذلك ما لم تشفع بأدلّة وأنساق برهانية تدعمها، ثم أن الافتراضات ليست ثابتة بل هي متغيرة تبعًا للوسط والمقام والمتكلّم والسامعين (...)،

---

[1]- Chaïm Perlman et Lucie-Olbrechts-Tytica :Traité de l'argumentation-La nouvelle rhétorique, P1 in

عبد إله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة، ص 303.

[2]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 97.

أمّا القيم فهي عنصر أساسي من عناصر الحجاج، (...) إذ يُعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين وفي دفعهم إلى الفعل المطلوب..." [1]، ينطلق كل محاجج إذا أراد أن يحاجج من مقدّمات وهي كثيرة أهمها: الوقائع الحقائق، الافتراضات، القيم، هرمية القيم والمواضع.

لمّا كانت الوقائع ثابتة (مسلمات) أكيدة لا شكّ فيها اعتبرت نقطة بداية الحجاج، أمّا الحقائق فيوظّفها المحاجج ليربطها مع الوقائع فذلك يضفي قوّة على مقدمته.

ومن العناصر التي تكوّن المقدمات: الافتراضات التي لا بدّ أن تدعم بأدلّة وبراهين إلا أن الافتراضات تختلف باختلاف الأوساط والمتكلمين والسامعين، ولتغيير مواقف السامعين ودفعهم إلى ما يريده المتكلّم، فإنّه يوظف القيم، والقيم نوعان: " مجردة كالعدل والشجاعة، ومحسوسة كالوطن وأماكن العبادة (...) وللقيم في نظره – بيرلمان– دور فعّال في بناء الثّقة بين المتحاورين (...) أمّا المواضع فتعتبر مقدمات أعم وأشمل من كل العناصر السابقة".[2]

وللقيم بنوعيها المجردة والمحسوسة دور هام في بناء الثقة بين المتخاطبين، أمّا المواضع فهي أعم واشمل من كل العناصر السابقة وهي إما مشتركة أو خاصة "والمواضع منها المشترك كمفهومي (الأقل والأكثر) الذين يصح تطبيقهما على عدة علوم وأجناس قولية، ومنها الخاص، وتكون مختصة بعلم أو جنس بعينه، منبثقة من أطره المكوّنة بحيث تكون دلالتها حكرًا عليه وهي تلعب دورًا كبيرًا في الحجاج والدفع إلى الفعل وخلخلة العقبات التصورية التي تكون أحيانا راسخة لدى الم تحاجين والتي لا تنسجم مع البناء الحجاجي المقدم. وتنقسم المواضع إلى أقس ام: فثمّ ة "م واضع الكم Lieux dequantité ومواضع الكيف Lieux de qualité"[3]، تنقسم المواضع إلى قسمين:

عامة مشتركة بين كل المجالات والميادين وخاصة بمجال من المجالات لا تصلح لغيره وهي تقوم بدور فعّال في التّأثير في المتلقي كما أنّها تضطلع بميزة هامة؛ وهي قدرتها على تغيير حتى الأفكار الراسخة في ذهن المخاطَبين والتي لا توافق ما يرمي إليه المخاطِبين وهي قسمان كمية وكيفية.

---

[1]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 111–112.

[2]– المرجع نفسه، ص 112.

[3]–المرجع نفسه، ص 113.

ذكرنا فيما سبق أن هرمية القيم من أهم المقدمات ونقصد بها تر تي ب المحاجج لحججه وأدلّته وهذه التراتبية تختلف من مجتمع إلى آخر، فعلى الخطيب أ ن يعرف نوع الحجج التي تؤثر في جمهوره، فيحتج بالآيات القرآنية أوّلا ثم الأحاديث النبوية ثانيا، ثمّ الأدلّة الأخرى مثلا في المجتمع الإسلامي – وغير الإسلامي فالقرآن حجة لكافة النّاس – فاحترام المحاجج ووعيه بهذه الهرمية عاملين فاعلين في تحقيق الخطاب وترتيب هذه القيم قد يكون أكثر تأثيرًا من القيم في ذاتها.

امتاز بيرلمان بمنهج فريد في دراسة الحجاج يقول عنه صلاح فضل:

"... فهو يعمد أوّلا إلى تحديد خواص الأبنية البرهانية التي يجب تحليلها قبل القيام بأية تجربة يراد بها اختبار فعاليتها، ومن ناحية أخرى فهو يرى أن منهج المعمل لا يصلح لتقديم تحديد دقيق لقيمة الحجج المستخدمة في العلوم الإنسانية، وأن طريقته تختلف أيضا بشكل جذري عن طريقة هؤلاء الفلاسفة الذين يجتهدون في أن تكون أفكارهم وتأملاتهم محصورة في المشكلات الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية، مستلهمين النماذج التي تتيحها العلوم التجريبية مما يدعوهم لرفض كل ما لا يتوافق مع هياكلهم الموضوعة مسبقا بحجة أنّه خال من القيمة".[1]

2 2 – عند ميشال مايير:

يعود الفضل في تأصيل الحجاج كمبحث أساسي في البلاغة المعاصرة إلى ميشال مايير.

تعدّ المُسَاءلة جوهر فلسفة مايير، فهو يسعى لإقامة نظرية بلاغية أساسها فكر التساؤل والمساءلة، كما أنّه يهتم اهتمامًا بالغًا بالحوار ففي "دراسته للبلاغة والحجاج ينطلق من جدلية اللغة والمعنى، فالحجاج في نظره مرتبط ارتباطا وثيقا بالكلام وخاصة، منه، الحوار وما يحويه ويثيره من تساؤلات جدلية تدفع إلى الحجاج دفعًا (...) ثم يؤكد في الوقت نفسه أن الحجاج يشمل جميع ضروب الخطابات والنصوص الشفوية والمكتوبة التي يقصد منها حمل المخاطَبين على تبني مواقف معيّنة وتجسيد ذلك الاعتقاد على صعيد الواقع عن طريق اجتهاد المحاججين في طرح قضاياهم وتساؤلاتهم الوجودية التي لا تخصهم وحدهم" [2]، يرى مايير أن الحوار بما يحتويه ويثيره من تساؤلات جدلية تدفع إلى الحجاج؛ وذلك من خلال تبادل الأفكار

---

[1]– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 100.

[2]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 135.

والتناقش حول العديد من المسائل التي تستدعي حججًا لإثبات فكرة ما وإقناع المخاطب بها.

لا يقتصر الحجاج على الحوار بل يتواجد في سائر أنواع الخطب الشفوية والمكتوبة التي تستعمل في إقناع المخاطبين وحثهم على اتخاذ موقف معيّن متوسلين في ذلك مختلف الحجج.

يعرّف مايير الحجاج بقوله: "الحجاج: نعرّفه عادة بكونه أداة للإقناع، إنّ البعد الحجاجي أساسي في اللغة بالإضافة إلى كل خطاب يسعى لإقناع المخاطَب، من جهة أخرى نصفها أيضا بأنها تفكير منطقي (Raisonnement logique)".[1]

ينضم مايير إلى من سبقه من الباحثين الذين يطابقون بين البلاغة والحجاج "إنه [مايير] يعتبر كل بلاغة حجاجا وبالعكس إذ هما – الحجاج والبلاغة– يهدفان في نظره إلى تضييق شقة الخلاف بين المتحاورين والمتخاطبين أو إلغائها"[2]؛ تولّي البلاغة أهمية كبرى للمتخاطبين تهدف إلى وصول الخطاب بكل وضوح إلى السامع باحترام مجموعة من القواعد، كذا أخذ المقام بعين الاعتبار فهي تسعى قدر المستطاع إلى تقريب المسافة بين المتحاورين وهو ما يهدف إليه الحجاج؛ حيث يقوم المخاطِب بتقديم الحجج والأدلة لإقناع المخاطب و جعله يوافقه الرأي و يتبنى أفكاره، لهذا السبب طابق مايير بين البلاغة والحجاج.

يعدّ مفهومي "الضمني" و"المصرّح به" من المفاهيم الأساسية عند ميشال مايير في نظرية المساءلة والحجاج يقول محمد علي القارض: "... يوظف ميار مفهومين أساسين في عملية الحجاج هما: "الضمني" والمصرح به" وهما في نظرنا إعادة صوغ لما جاء عند أ.ديكرو في إطار نظرية المساءلة فالمصرّح به هو ظاهر السؤال الواحد"[3]؛ وظّف مايير مفهوم الضمني والمصرح به الذي جاء بهما أ. ديكرو فالضمني عنده هو مختلف الأجوبة التي يمكن أن يجاب بها عن سؤال ما، أمّا المصرّح به فهو ظاهر السؤال.

---

(1)– Michel Meyer, Logique, langage et Argumentation, P 136.

(2)– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 136.

(3)– محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة "لميشال ميار" ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمود، ص 394–395.

عرّف مايير الحجاج بقوله: "الحجاج هو دراسة العلاقة بين المصرّح به (L'explicite) والضمني (L'implicite) يبدو لي أن هذا هو أعم تعـــريف يمكننا إعطاؤه (...) من الواضح أن الاقتناع (La Persuasion) والتيقن (La Conviction) ليسا إلا نتائج العلاقة بين الضمني والمصرّح به (...) البلاغة إذن هي شكل من أشكال الحجاج"[1]؛ فالحجاج عنده هو نتيجة دراسة العلاقة بين الضمني والمصرّح به في الخطاب كون الإقتناع والتيقن ينتج عن تلك العلاقة –بين الضمني والمصرّح به – كما أنه يجعل البلاغة مظهرًا من مظاهر الحجاج ثم يضيف: "يمكن أن نعمّم فنقول: يوجد حجاج عندما تكون هناك علاقة بين المصرّح به والضمني، ينمو في الاستنتاج (الاستنباط L'inférence) في فعل التلفظ ذاته ، يعمل الحجاج كمطلب (Exigence) لنتيجة ما (Conclusion)، شريطـــة أن يكون هناك ردّ فعل متخذ (Le faire faire)، بالنّظر إلى الإشكال المطروح في السياق الذي يظهر فيه، سياق يعطي للممثلين (Protagoniste) المصادر المعلوماتية الضرورية للإستنتاج من ثنائية الجواب – النتيجة"[2]، فمايير يصرّ على أن الحجاج يتحقق إذا وجدت علاقة بين ما هو مصرّح به وما هو ضمني (ما يفهم من السؤال مباشرة والاحتمالات المتعددة للإجابة) كما أنّه يرى أن النتيجة متواجدة في فعل التلفّظ ذاته، ثم يذهب إلى أن النتيجة هي الّتي تتطلّب أو تستدعي اللّجوء إلى الحجاج وذلك في حالة ما إذا سعى المتكلّم إلى إثارة ردّة فعل في المتلقي أو أنّه أراد أن يدفعه إلى اتخاذ موقف معين (مادي أو معنوي) في مسألة أو إشكالية ما هي محلّ النّقاش، معتمدًا في ذلك على ما يحمله أو ما يوفّره السياق من معلومات ضرورية تسمح للمتلقي بالاستنتاج، فالمخاطب عليه أن يعرف موافقة أو رفض المخاطب لأجوبته وذلك من خلال معرفته بالشخص "إنّ معرفة المتكلّم بموافقة المخاطَب أو رفضه أجوبته لا تكون إلاّ من باب التوقع الذي تحدّده معرفة الشخص كما تحدّده كذلك ظروف المقام بما فيها المسألة المطروحة، ولا يكون الاتفاق والاختلاف إلا في درجات متفاوتة في القوة والضعف"[3]، يعطي مايير أهمية كبرى للعلاقة الثنائية المؤسسة أي علاقة المتكلّم حول مسألة ما.

يرتبط الحجاج في نظر مايير بركنين اثنين: "إن الحجاج معقود إذن بهذين الركنين المتضافرين ركن البلاغة بمختلف وجوهها خاصة المجاز وركن العلاقات

---

(1)– Michel Meyer, Logique, langage et Argumentation, P 112.

(2)– Ibid, P 137.

(3)– محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة "لميشال ميار"، ص 400.

الخطابية القائمة على مبدأ أساسي هو إلغاء الاختلاف وتأكيد الاتفاق أو العكس"[1]، فالمتكلم قد يركّز على المسائل التي يتفق فيها معه المخاطَب وقد يتجاهلها ويتركها جانبًا ليعمّق الاختلاف بينهما.

يمثّل السؤال عند مايير أساس نظريته فهو "الإمكانية الوحيدة التي يسمح بها السؤال عن جوهر الكلام وهذا ما يمثل حجر الزاوية في نظريته، أمّا بقيّة الأحداث" الكلامية فهي فرع عن السؤال"[2]؛ فالسؤال هو الوحيد الذي يمكنه الكشف عن جوهر الكلام وليس بقية الأساليب الكلامية، والتي تعدّ فرعًا للسؤال ليس إلاّ، فالجواب ناتج عن السؤال ولا يمكن أن يوجد بدونه، ونفس الشيء بالنسبة لباقي الأحداث الكلامية التي يثيرها السؤال.

يخلص مايير في الأخير إلى أنّ الحجاج ناتج عن نظرية المساءلة يقول: "يتضح من كل هذا أن الحجاج يأخذ من نظرية المساءلة (La théorie du Questionnement). ما هي الحجّة أو رأي حول سؤال؟ طرح سؤال – والذي هو – محاجة (Argumenter) (...) لكن ما السؤال الذي نقصده؟ إذا كان من الضروري توجيه سؤال في سياق معين، فإن الحجة (L'Argument) هي الجواب الذي يأخذ مكان النتيجة لذلك السؤال"[3] يعتبر مايير طرح السؤال والذي هو جوهر الخطاب بمثابة حجاج، وذلك من خلال الإجابة عن سؤال مطروح في سياق محدّد والّتي تعدّ – أي الإجابة – نتيجة لهذا السؤال وهذه الإجابة هي حجة.

يرى مايير أن للجواب وظيفة حجاجية أيضا: "ينهض الجواب كذلك مثل السؤال بوظيفته الحجاجية القائمة على مفاوضة المسافة فيبرز مواطن الاتفاق بين الطرفين أو يقلّل من شأن تلك المختلف حولها"[4]، فالجواب من جهته أيضا يبرز مواطن الاتفاق بين المخاطِب والمخاطَب أو يقلّص من حجم المسائل المختلف حولها وذلك بتطابق إجابة المخاطَب والنتيجة التي يريدها المخاطِب أو من خلال اقتراب إجابته من تلك النتيجة.

ذكرنا باختصار شديد ما جاء به مايير في نظرية المساءلة ونظرية الحجاج من خلال كتابه "Logique, Langage et argumentation" خاصة وأراء بعض الباحثين حوله، كما أنّه لا يمكننا الإلمام بكلّ آراءه في الموضوع كون عطاءه مازال

---

(1)– محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة "لميشال ميار"، ص 400.

(2)– المرجع نفسه، ص 392.

(3)– Michel Meyer, Logique, langage et Argumentation, P 136.

(4)–Ibid, P 40.

مستمرًّا من خلال التدريس في الجامعة أو المجلّة التي يشرف عليها وكذا المؤلفات التي يصدرها.

2 3 –عند أوزوالد ديكرو و جون كلود أنسكمبر:

اتخذ الحجاج مع أ. ديكرووج. انسكمبر منحًا لغويًا متميزين بذلك عمّن سبقهم في دراسة الحجاج ويعتبر المفهوم الذي وضعاه للحجاج مفهومًا تقنيًّا، ترى سامية الدريدي أن الحجاج عند ديكرووأنسكمبر في مؤلفهما "الحجج في اللّغة" يختلف عن الحجاج عند بيرلمان، فالحجاج عند ديكرو يقوم على اللّغة بالأساس بل يكمن فيها، بينما عرّفه بيرلمان باعتباره مجموعة أساليب وتقنيات في الخطاب تكون شبه منطقية أو شكلية أو رياضية"[1]. يرى ديكرو أن مجال الحجاج هو اللّغة ووسيلته هي اللّغة أيضًا وهو بذلك يختلف عن بيرلمان الذي ذهب مذهبًا مختلفًا كما سبق الذّكر.

يوجد الحجاج عند ديكرووأنسكمبر إذا قام المتكلّم (Locuteur) بتقديم ملفوظ م1 (أو مجموعة من الملفوظات) موجّه لجعل المتلقي يقبل ملفوظًا آخر م2 (أو مجموعة من ملفوظات أخرى)، ويقرّ أنّ في اللّغة شروط تتحكم في هذه العملية[2]، فالحجاج عبارة عن علاقة دلالية تربط بين الأقوال في خطاب ما ناتجة عن عمل الحجاج والذي يخضع بدوره لقيود لغوية لا بدّ من توفّرها في الحجة لذلك فإن "الحجاج مسجّل في بنية اللّغة ذاتها وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للأقوال ولا بمعطيات بلاغية مقامية، فالخطاب هو وسيلة الحجاج وهو في آن واحد منتهاه"[3] فالحجاج عنده مرتبط بالبنية اللّغوية فقط، ولا يرتبط بمدلولات الكلام أو المعطيات البلاغية والمقامية، وهو ما تؤكده سامية الدريدي: "إن هذه النّظرية التي وضع أسسها اللّغوي الفرنسي ديكرو نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللّغوية وبإمكانات اللّغات الطبيعية التي يمتلكها المتكلّم ويستغلّها بقصد التأثير".[4]

---

(1)– ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص22.

(2)– Voir : Jean Claude Anscombre – Oswald Ducrot, l'argumentation dans la langue, 3ème Edition, MARDAGA, Belgique 1997, P08.

(3)– شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللّغة ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 306،361.

(4)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 55.

يضع المؤلفان شرطا ليكون ملفوظ م $_1$ حجة للملفوظ الآخر م $_2$: "لكي نتمكن من اعتبار الملفوظ م$_1$ كحجة لصالح الملفوظ م $_2$، لا يكفي أن يكون الملفوظ م $_1$ قادرًا على إعطاء أسباب لموافقة م$_2$، البنية اللّسانية لـــــ م $_1$ يجب أيضا أن تخضع لبعض الشروط من أجل أن تكون مقبولة لبناء حجة م $_2$ في خطاب ما" [(1)] حيث أنّنا قد نجد العديد من الملفوظات م$_1$ تقدّم أفضل الأسباب لقبول ملفوظ آخر م $_2$ لكنّها في الخطاب لا يمكننا أن نوظّفها كأدلة لصالح م$_2$، لذلك طالب ديكروو أنسكمبر بضرورة توفّر شروط لغوية تمكنه من أن يستخدم كحجة للملفوظ م $_2$ ثم يقول: "إنّ التسلسلات الحجاجية الممكنة داخل الخطاب مرتبطة بالبنية اللسانية للملفوظات وليس إلى المعلومات التي تحملها فقط"[(2)]، إذن يصر الباحثان على البنية اللّغوية للحجج، فهي الوحيدة التي تمكن الملفوظ م$_1$ ليكن حجة الملفوظ م$_2$.

يذكر الباحثان أنّ الملفوظ م $_2$ قد يكون صريحا أو ضمنيا يقول: "عندما يبني المتكلم حججا، يعرض –كما سبق و أن ذكرنا – ملفوظ م $_1$ (قولا ق $_1$ كما يستعمل شكري مبخوت) (أو مجموعة من الملفوظات) كحجة تستدعي ملفوظا آخر م $_2$ صريح أو ضمني، يبدو من المعقول وصف الحجاج كتحقيق فعلين: التلفظ بالحجة من جهة، ومن جهة أخرى فعل الاستنتاج عندما نصرّح أو نضمر النتيجة" [(3)] فالحجاج عنده هو تحقيق فعلين اثنين، الأوّل هو التلفظ بالحجّة، والثاني هو فعل استنتاج لنتيجة مصرّح بها أو مضمرة، فالجرجاني على سبيل المثال عندما يتحدّث عن فضل العلم ثم فضل علم البيان ويقدّم الحجة لفضلهما فإنّه يريد القول ويؤكد إعجاز القرآن الكريم الذي بلغ أوجّ درجات البيان على الإطلاق، فالجرجاني يقدّم البيان كحجة لإعجاز القرآن التي أضمرها ولم يصرّح بها.

وهو ما تذكره سامية الدريدي: "إنّ المتكلّم إنّما يجعل قولاً ما حجّة لقول آخر هو بلغة الحجاج "نتيجة" يروم إقناع المتلقي بها وذلك على نحو صريح واضح أو بشكل ضمني، بمعنى آخر إنّ المتكلم قد يصرّح بالنتيجة وقد يخفيها فيكون على المتلقي استنتاجها لا من مضمون هذه الأقوال الإخبارية بل اعتمادًا على بنيتها اللغوية فحسب"[(4)]، فالبناء اللغوي هو الوحيد المعتمد في استخلاص النتائج من الحجج المقدّمة سواء كانت ضمنية أو صريحة.

---

(1)– Jean Claude Anscombre – Oswald Ducrot, l’argumentation dans la langue, P08.

(2)– Ibid, P 09.

(3)– Ibid, P 11.

(4)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 23.

وعن الانتقال من م 1 إلى م2 يقول عز الدّين الناجح: "فهذا الانتقال من "ق 1 إلى ق2"(*) هو آلية التعريف (...) إذ التوجه الذي يقصدناه هو ذلك الإنزياح أو ذلك الانتقال ولنقل تلك الحركة بين وضعيتين خطابيتين مختلفتين، الوضعية الأولى مصرّح بها معلومة ووضعية ثانية ضمنية"[1]، إنّ جوهر تعريف الحجاج عند الباحثين هو ذلك الانتقال من الملفوظ م 1 إلى الملفوظ م2 وهو ما يعرف بالتوجيه وهو ذلك الانتقال من وضعية خطابية إلى وضعية خطابية أخرى مختلفة وتكون الأولى معلن عنها أي مصرّح بها أمّا الثانية فهي ضمنية ومضمرة.

لا يكاد يخلو مقطع من مقاطع كتاب "الحجاج في اللّغة" والذي يتحدث عن الحجاج من ذكر الملفوظ م 1 وم2، فيذكران في آخر الكتاب: "عندما نتحدّث عن الحجاج، فإنّنا نرجع دائمًا إلى خطابات تحتوي على الأقل ملفوظين م 1 وم2، أين يعطى الأوّل لتعليل أو فرض الآخر؛ الأوّل هو الحجّة (L'argument)، والثاني هو النتيجة (La conclusion)."[2]

يتطلب الحجاج توفّر على الأقل ملفوظين يقوم الأوّل بتعليل نتيجة ما ومثال ذلك: م1: إنّ الحرّ شديد، م2 : لنذهب إلى الشاطئ. ففي الخطاب لنذهب إلى الشاطئ بما أن الحرّ شديد أو إن الحرّ شديد لنذهب إلى الشاطئ، يمكن أن يكون ملفوظ النتيجة ضمني (Implicite) كما يمكنه أن يكون واضحًا كما في هذا المثال.

وعن تركيز ديكرووأنسكمبر على البنية اللغوية في تحليل الحجاج يقول شكري المبخوت: "ولمّا كان الحجاج مكونا من مكوّنات البنية اللّغوية ويرتكز على مفهوم التعليمات والتوجيهات المسجّلة في هذه البنية، ولما كانت طريقة الاحتذاء والتقليد تقرّ باستقلالية الظواهر الدلالية وسمتها الخلافية فإنّ التّكهن بنيويا بالترابطات الحجاجية واحتسابها دلاليّا يصبحان ممكنين في مستوى تحليل المكوّن اللّغوي ذاته دون الحاجة إلى اللّجوء إلى المكوّن البلاغي إلاّ عند الاقتضاء إثراء للوصف الدلالي وتقوية لقدرة الآلة على تفسير الظواهر"[3]، يرى الباحثان أن البحث عن العلاقات الحجاجية يقتصر على اللّغة ذاتها أي أننا لا نحتاج إلى معرفة الخصائص البلاغية وأبعادها إلاّ في حالة واحدة وهي إثراء الوصف الدلالي فالحجاج عندهما هو خاصية لغوية دلالية

(*)- استعمل الباحث (ق1) و(ق2) اختصارا لــ "قول1 وقول 2" كترجمة لـــــ Enoncé 1/2.

(1)- عزّ الدين الناجح، العبقرية الحجاجية في اللّغة العربية من خلال دراسة تداولية لسانية لسورة الإخلاص، مجلة المجمع الجزائري للّغة العربية، ع6، السنة 3، 2007، ص 170.

(2)- Jean Claude Anscombre – Oswald Ducrot, l'argumentation dans la langue, P171.

(3)- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللّغة، ص 362، 363.

غير مرتبطة بالاستعمال في المقام: والحجاج يتصل بالعلاقات بين الأقوال في الخطاب وهو يسعى إلى إبراز مبادئ وكيفية اشتغال هذه البنية اللّغوية التي تحتوي هذه العلاقات.

يركزّ ديكرو على هذه الفكرة في مرجع آخر يقول: "هذه النّظرية، أذكر، من مبادئها أن الكلمات والبنى الجملية (Les structures phrastiques) (بعبارة أخرى، اللّغة) تحتوي (تحمل) تسلسلات حجاجية مستقلة عن المحتوى المعلوماتي (Contenusinformatis) مسيّرة بالملفوظات".(1)

يصرّ ديكرو على استبعاد المعلومات التي تحتويها الكلمات والجمل التي نستخدمها في الملفوظات.

كان لـــــ "جون كلود أنسكمبر" دور فعّال في تطوير نظرية الحجاج من الناحية اللّغوية أيضا يقول: "في نظرية الحجاج، نخ ل ص من الملفوظ ف(F) إلى الملفوظ ج(G) ليس كون ف يعرض وقائع (des faits) ف، فَ، فً،... التي يمكن أن نستنتج منها وقائع ج، جَ، جً،... ممثلة بـــ ج، لكن بسبب أن ظهور ف يبدو كاستعمال مشروع لموضع (Topos) (أو عدّة مواضع (Topoï)، سلسلة من المواضع) يقود إلى (ج)".(2)

يرى أنسكمبر أنّه في نظرية الحجاج نستخلص الملفوظ (ج) من الملفوظ (ف) لأنّ الملفوظ (ف) يستخدم موضع أو مواضع والتي تؤدي إلى (ج).

يلعب الموضع (Topos) دورًا كبيرًا في نظرية الحجاج عند أنسكمبر؛ فهو يرى أنّه فيما سبق كان ينظر للعلاقة الحجاجية على أنّها ثنائية (Binaire) لا تستدعي إلاّ مصطلحين الحجّة والنتيجة (صريحة أو ضمنية)، وهذا ما يعني أنّ الانتقال من هذه الحجة إلى تلك النتيجة كان مباشرا، ينتقل من نفسه ولم يفكر أحد في تلك المرحلة أنّه قد يكون ذلك الانتقال غير مباشر ! ثم يشبّه أنسكمبر الانتقال من الحجة إلى النتيجة كطريق (un chemin) ففي تلك المرحلة كان يعتبر ذلك الطريق مباشرًا وأكثر من ذلك يعتبر الطريق الوحيد الممكن، لكنه يرى عكس ذلك ويذهب إلى أنه يمكننا تخيّل

---

(1)- Oswald Ducrot, Topoï et forms topiques in théorie des Topoï, sous la direction de Jean-Claude Anscombre, 1ère Edition, Edition Kimé, Paris 1995, P 86.

(2)- Jean-Claude Anscombre, De l'argumentation dans la langue à la théorie de Topoï, in theorie des Topoï, sous la direction de Jean-Claude Anscombre, 1ère Edition, Edition Kimé, Paris 1995, P 44.

عدّة طرق مباشرة أو غير مباشرة ينطلق من قمة (un sommet) (حجة) إلى أخرى (نتيجة).[1]

إن الانتقال من الحجة إلى النتيجة ليس مباشرًا أو وحيدًا بل هناك عدّة طرق تسمح بهذا الانتقال وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة.

يقـوم المتكلّم بإعطـــاء بعض الإشارات عن الطريق التي اجتباها أثناء حديثه تمكّن المتلقي من إعادة بناء المســـار الذي سلكـــه المخاطِب: "أثناء التلفظ، يعطي المخاطِب إشارات حول الطريق التي اختارها يحاول المخاطَب إعادة بناء المسار انطلاقا من الإشارات المتوفرّة نسمي مواضع الإشارات التي تسمح بإيجاد اختيار من بين الطرق"[2]، يحتوي الكلام المتلفظ به على مجموعة من الإشارات التي تساعد في معرفة طريق من الطرق التي استخدمها المتكلّم للانتقال من حجة إلى نتيجة.

نلاحظ أن مصطلح المواضع يتكرّر كثيرا عنـــد أنسكمبروديكرو، فما هي المواضع إذن؟

يقول أنسكمبر في هذا الخصوص: "إنّها قواعد عامة، والتي تستخدم كسند للاستدلال".[3]

يـذكــر شارودو ومانغونـو في خصوص الموضع: "عادة" الارتباط بين الحجة والنتيجــة مضمون بـواسطة المــوضـع، وعادة ما يكون ضمن ســي، ترابـــط التسلسل «هبّت الرياح، لعلّها ستمطر» مبني على الموضع «في العادة، عندما تهبّ الرياح، تمطر»[4]، إنّ الانتقال من حجة إلى نتيجة يتم عبر وسيط هو ما يسمى بالموضع وهي تلك القواعد العامة السابقة المعروفة لدى المتخاطبين.

تعرّض الحجاج إلى أكثر من مقاربة، يقول عز الدين الناجح:"... يمكن القول بصيغة تأليفية تجريدية جدًّا إن الحجاج منذ كتاب بيرلمان وتيتيكاه قد تعرض إلى ثلاث مقاربات هي بمثابة الرّجة في الدرس الحجاجي، فالمقاربة البلاغية يمثلها بيرلمان وتيتيكاه بكتابهمـــا (...) [مصنّف في الحجاج والبلاغة الجديدة] والمقاربة المنطقية

---

(1)– Voir, Jean-claud Anscomber, De l’argumentation dans la langue à la théorie de topoi, P 38.

(2)– Ibid, P 38.

(3)–Ibid, P 39.

(4)– Patrick Charaudeau, Dominique Maingueneau, Dictionnaire d’analyse du discours, P 69.

يمثّلها كتاب تولمين(*) وبما احتواه من مناويل وفقها تكون العملية الحجاجية سالمة من اللحن، والمقاربة الثالثة هي المقاربة اللسانية (...) ويمثلها ديكرو في كتابه الحجاج في اللغة[1] بالإضافة إلى جهود ميار في نظرية المساءلة.

هذا باختصار ما جاء به الباحثون المحدثون في مجال الحجاج، وبالخصوص في مفهوم الحجاج.

3 - الإستراتيجية الحجاجية، مجالها، مراحلها والهدف منها:

3 - 1 - مفهــومهــا:

تمكّن اللغة المتكلم من انتهاج عدّة مذاهب في الكلام حسب شخص المتخاطبين أو أهدافهم أو شكل الخطاب الذي يوظّفونه، ممّا ينتج لنا عددًا من الإستراتيجيات الخطابية؛ والإستراتيجية هي اختيار أساليب العمل أو التنفيذ المناسبة في ضوء الإمكانات والموارد المتاحة لتحقيق ا لأهداف الم رجوة، فهي فن اختيار وسائل العمل المناسبة لتحقيق الغايات المنشودة وبالاعتماد على المواد المتوفرّة.

تحتوي اللّغة على عدد من الاستراتيجيات؛ من بينها الإستراتيجية التضامنية، الإستراتيجية التوجيهية، الإستراتيجية التلميحية والإستراتيجية الحجاجية (**) ويتمحور بحثنا حول الإستراتيجية الحجاجية لذلك نركزّ الحديث عليها دون غيرها متطرقين إلى مجال استعمالها وما هي المسو غات التي تسح لنا باستخدام الحجاج لنصل في الأخير إلى الغاية والهدف من استعمال هذه الإستراتيجية.

(*)- يجعل تولمين عناصر الحجاج خمسة: المعطى، نتيجة، قانون الانتقال، Modalisateur-support، وللتعرف على توجه تولمين ينظر P. Charaudeau, D. Mainguenneau, Dictionnaired'analyse du discours, P69

(1)- عزّ الدين الناجح، العبقرية الحجاجية في اللّغة العربية، ص 166.

(**)- لقد تم تصنيف أنواع الاستراتيجيات الخطاب بناء على معايير واضحة هي:

1 - المعيار الاجتماعي، ويتعلق بالعلاقة بين طرفي الخطاب وقد تفرّغ عليه إستراتيجيتان هما: الإستراتيجية التضامنية والإستراتيجية التوجيهية.

2 - معيار شكل الخطاب اللّغوي للدلالة على قصد المرسل، وتأسس عليه الإستراتيجيةالتلميحية.

3 - معيار هدف الخطاب، وتأسس عليه إستراتيجية الإقناع"، عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص 444. وقد فصّل الباحث في كل نوع من هذه الأنواع في مختلف فصول كتابه.

3 2 -مجـالهـــا:

تحدّثنا في مفهوم الإستراتيجية عن الوسائل وا لأهداف، فما هي إذن وسائل الإستراتيجية الحجاجية وما هو هدفها ؟

إن الإستراتيجية الحجاجية بشكل خاص هي: فن توزيع مختلف الوسائل الحجاجية (الحجج بأنواعها) واستخدامها، لتحقيق الإقناع، عبر مراحل متدرجة زمنيا ومنطقيا، إذن وسائل الحجاج هي الحجج بشتى أنواعها الصناعية وغير الصناعية، على حدّ تصنيف أرسطو. والتي سنفصّل الحديث عنها في فصل لاحق (الفصل 3) – حسب الوضعية الخطابية وظروفها لتحقيق أهدافها وهو إقناع متلقٍ رافضٍ لما أتينا به أو تأكيد لمتلقٍ لديه شكٌ فيما نقول، وهذه العملية لا تأتي دفعة واحدة وإنّما تمرّ عبر مراحل زمنية ومنطقية.

يلجأ المخاطِب إلى الإستراتيجية الحجاجية في عدّة حالات كما أنّها لها عدّة مزايا تجعلها مستخدمة في شتى المجالات ومن مختلف الأشخاص؛ ومن بين ذلك "أن تأثيرها التداولي في المرسل إليه أقوى، ونتاجها أثبت وديمومتها أبقى، لأنّها تنبع من حصول الاقتناع عند المرسل إليه غالبا، لا يشوبها فرض أو قوّة"[1]، إذن مما يدفع المخاطِب إلى استخدام هذه الإستراتيجية هو ذلك الأثر الكبير والدائم الذي يتركه لدى المتلقي، كونها تصدر عن قناعة الشخص، وليس بفرصها عليه بالقوة، وقناعة الأشخاص راسخة لا تتغيّر.

تسعى الإستراتيجية الحجاجية إلى حصول الاقتناع لدى المرسَل إليه عن طريق الحجج المنطقية وشبه المنطقية وليس عن طريق التعنيف والإكراه أو عن طريق شحن مشاعره الذي يؤدي إلى الاندفاع دون الاقتناع.

3 3 -وظيفتهـا:

تعدّ الإستراتيجية الحجاجية أداة فعّالة لتحليل الحجاج (أو خطاب عبد القاهر الجرجاني) وممارسته (كإنتاج خطاب حجاجي) لأنّ لغة الحجاج هي لغة قصدية بامتياز، والوظيفة اللّغوية في الخطاب الحجاجي هي وظيفة تأثيرية فـ"الر غبة في تحصيل الإقناع (...) هي الهدف الأعلى لكثير من أنواع الخطاب، خصوصًا في العصر الحاضر"[2]، لأنّ للحجاج غاية واضحة ودقيقة يسير نحوها هي الإقناع نفسه،

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 445.

[2]-المرجع نفسه، ص 446.

وكما أنّه لا يتردّد في توظيف كل وسائل الإقناع ويوزّعها عبر مراحل متتالية، ففي الحجاج إمّا أن تقنع قارئك أو يقنعه خصمك؟

لا تقتصر الإستراتيجية الحجاجية على مجال واحد أو على طبقة معيّنة بل هي شمولية "إذ تمارس على جميع الأصعدة، فيمارسها الحاكم والفلاح الصغير وكبير القوم والطفل والمرأة، كل ذلك بوعي منهم" [(1)]، فالإستراتيجية الحجاجية اختيار وليست تحصيل حاصل، فالمرسِل يختارها من بين باقي الإستراتيجيات التي تتوفر عليها اللّغة من أجل تحقيق هدفه: إقناع المرسَل إليه.

تحقق الإستراتيجية الحجاجية نتائج تربوية مما جعلها حاضرة بشكل جليّ في ميدان الدعوة "كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء عند محاججة أقوامهم من أجل إقناعهم بالدخول في الدين، وليس الأمر مقتصرا على ميدان الدعوة، وإن كان من أهمّها، بل يتجاوز إلى التربية في ميادين أخرى" [(2)]، فهذه الإستراتيجية ليست حكرًا على ميدان دون باقي الميادين، لكن يبقى لكل حقل معرفي إستراتيجية حجاجية تناسبه، ولكل وضعية تواصلية إستراتيجية حجاجية تتلاءم معها، فقد يكون اختيار إستراتيجية حجاجية في وضعية تواصلية ما صائبا وغير صائب في وضعية أخرى.

تعدّ الإستراتيجية الحجاجية الأصلح في خضمّ الصراعات والمناقشات وكثير من المجالات الأخرى، وتستعمل من أجل تحقيق أهداف المرسِل النفعية باختلافها وتنوّعها "فقد يستعملها التاجر لبيع بضاعته، وقد يستعملها المرشّح لرئاسة الدولة أو المؤسسة لحمل الناخبين على انتخابه، وقد يمارسها الطفل مع أحد والديه من أجل الحصول على قطعة من الحلوى أو السماح له باللعب وهكذا" [(3)]، نلاحظ أن الإستراتيجية الحجاجية حاضرة في أبسط الوضعيات التخاطبية لتحقيق أبسط الأهداف النفعية كذلك، وحاضرة أيضا في وضعيات أعلى مستوًا وأكثر تعقيدا وأكبر هدفًا.

قد يتداخل مفهوم تطوّر النّص مع إستراتيجية النص، لذلك تدعو سامية الدريدي إلى ضرورة التفريق بينهما: "فالتطور هو حركة التّلفظ ذاتها التي تُنتِجُ المعاني في تفاعلها مع الموضوع ومع المحيط والظّروف وترتّبها وتتمثّلها وتستوعبها بشكل واعٍ أو لا واع لا فرق، وأمّا الإستراتيجية فهي عملية تنظيم عمليّ يُخضِعُ لها المتكلّم خطابه راصدًا بواسطتها وسائل مختلفة لخدمة غايات معيّنة فتكون تبعًا لذلك

---

(1)–عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 446.

(2)– المرجع نفسه، ص 447.

(3)– المرجع نفسه، ص 445.

عملية واعية خطّط لها المتكلّم بشكل دقيق وباختيار موجّه تحكمه نتائج الخطاب وغاياته الحجاجية".(1)

تطوّر الخطاب يعني فعل التّلفظ ذاته ومن خلاله تنتج المعاني وتتفاعل مع موضوع الخطاب وسياق الإنتاج، وتطوّر الخطاب يستوعب هذه الأمور بشكل واع أو غير واع، وهو ما يضع الفرق مع الإستراتيجية التي هي عملية منظّمة ومقصودة يوظّفها المتكلّم قصد تحقيق أهداف مسطّرة وغايات حجاجية مقصودة.

يستعمل المتكلّم الحجاج كي يزيل الشك الذي قد يتبادر إلى المتلقي حول مسألة من المسائل جاء في إستراتيجيات الخطاب: "يسلك المرسل سبيل الحجاج ليقصي السؤال، أي سؤال الحيرة والشكّ، وبهذا فهو يعمد إليه لئلا يدع للشكّ أو التساؤل مجالا حتى عند الحديث عن البديهيات باستباقه أسئلة المرسل إليه المتوقعة بالجواب الذي هو عبارة عن الحجاج ذاته، ويتعرّف على الحجج المعارضَة فيوردها ثم يدحضها، ليكون المرسل إليه على بيّنة من أمره".(2)

إنّنا نلجأ للحجاج كي نقضي على الشكوك التي قد تتبادر إلى المتلقين نهائيا ولا نتوك لها مجالاً حتّى وإن تعلق الأمر بالأمور البديهية، وذلك عن طريق توقّع الأسئلة التي يمكن أن يطرحها المتلقي أو يتساءل عنها في نفسه ويجيب عنها عن طريق الحجاج، بالإضافة إلى ضرورة معرفة المتلقي حجج المعارضين ثم يذكرها ويدحضها (يرفضها) فلا يترك للمرسل إليه مجالاً للشّك ويتوصل بذلك إلى إقناعه.

نظرًا للأهمية التي يمتاز بها الحجاج وكذا حضوره في مختلف المجالات لنا أن نتساءل متى بدأ الإنسان باستعمال الحجاج ؟ وهو السؤال الذي يطرحه "فليب بروتن": "منذ متى والإنسان يستخدم الحجاج ؟ نريد أن نقول: منذ أن بدأ يتواصل. أفضل من ذلك: منذ أن كانت له آراء، اعتقادات، قيم، و قام بكل ما في وسعه ليشارك غيره بها"(3) فالحجاج ليس حديث النشأة ولا يعود إلى العصر اليوناني، بل هو سابق له كثير – حسب بروتن – فوجودها يعود إلى امتلاك الإنسان للأفكار والآراء والقيم والاعتقادات والتي أراد أن يتقاسمها مع غيره بفضل التواصل.

---

(1)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 87.

(2)– عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 458.

(3)– Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P 15.

يعدّ الحجاج فعلاً أساسيًا من أفعال الإنسانية وهناك ثلاثة عناصر أساسية تسمح بتحديد هذا المجال بشكل جيّد: "تعريف حقل الحجاج يستدعي معرفة خصوصية هذا الفعل الهام من أفعال الإنسانية. (...) ثلاث عناصر أساسية تسمح بتحديد جيّد لهذا الحقل:

1 -الحجاج، هو أوّلاً تواصل، فنحن إذًا في وضعية اتصال" والتي تستدعي أطراف، رسالة.

2 -الحجاج ليس إقناعا بأي ثمن، وهو ما يحدث قطيعة مع المتحكم في حالة ما إذا لم تنظر إلى أدوات الإقناع.

3 -الحجاج هو اقتراح رأي لأشخاص مع وإعطاؤهم الأسباب الجيّدة للإذعان"[1] ذكر فليب بروتن ثلاث ميزات للحجاج والتي تسمح بتحديد أمثل لهذا الحقل.

3 4 -مراحله:

يمرّ إنتاج القول الحجاجي بعدّة مراحل؛ جعلها أرسطو ثلاث مراحل أساسية رتّبها حسب تتاليها في زمن الإنشاء وهي:

-المرحلة الأولى سماها (Eurésis) وتعرف في اللّاتينية بـ (Inventio) وهي مرحلة البحث عن مواد الحجاج.

-المرحلة الثانية سمّاها أرسطو (Taxis) وتعرف باللاتينية بـ (Disposito) وهي مرحلة يرتب فيها المتكلّم أجزاء كلامه.

-المرحلة الثالثة في الإنتاج سمّاها أرسطو (Lexis) وتعرف في اللّاتينية بـ (Elocutio) ولقد استعمل ابن رشد كلمة "فصاحة" وهي الأسلوب الذي يقدّم به المرسِل قوله.

أضاف أرسطو بعد ذلك مرحلة رابعة سمّاها (Hypocrisis) وتعرف باللّاتينية بـ (Actio) وكانت تستعمل في المسرح وتدلّ على تقمّص الممثل للشّخصية التي يؤدي دورها[2]، خصص أرسطو المقالة الثالثة من كتابه لهذه المسائل ومختلف المراحل التي تمرّ بها والأمور التي يجب الأخذ بها، فعلى المحاجج أن يختار الحجج المناسبة لموضوعه، ثم يقوم بترتيبها منطقيا ليكون لها الآثار المرجوة كما عليه

---

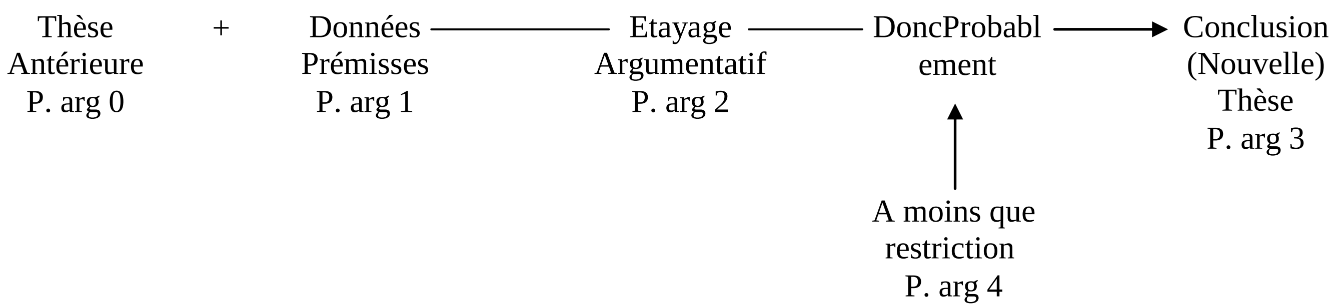
(1)– Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P 16-17.

(2)–Voir, Arsitot, rhétorique, P 297.

أن يستخدم أسلوبًا معيّنًا ليتمكّن من الوصول إلى إقناع المتلقي، فهذه الأمور من شأنها أن تميل السامعين إلى الإصغاء والاستماع والإقبال على المتكلّم.

يحاجج المرء في حالتين: إمّا لعرض أو رفض أطروحة ما، وفي كلتا الحالتين يمرّ الحجاج بنفس المراحل، يقول ميشال آدم: "عندما نعرض أو نرفض أطروحة، فإن الحركة الحجاجية هي نفسها: ننطلق من معطيات لنصل إلى نتيجة، بيّن الاثنين، الانتقال مضمون بواسطة "خطوات حجاجية" (Démarchesargumentatives) والتي تأخذ هيئة تسلسلات (Enchaînements) حجج (Arguments) و أدلّة (Preuves).

ثم يوضح ذلك بالمخطط التالي:[1]



تنتقل في الحجاج أطروحة ما من المعطيات إلى النتيجة عبر التسلسلات الحجاجية ونقصد بها تلك الحجج والأدلّة المستمدة من المواضع أو ناتجة عن الحركة الحجاجية، والتي يستخدمها المرسِل لإقناع المرسَل إليه.

3 5 هدفها:

يتضح جليًّا مما سبق أنّ هدف الحجاج هو الإقناع؛ إقناع شخص ما بفكرة أو رأي أو موقف، مغيّرين بذلك اعتقاده السابق نقدم حجّة لشخص ما كي نجعله يتقبل اقتراحا. من أجل تغيير نظام اعتقاده" [2] فالمخاطب يقدم حججًا قصد إقناع المتلقي بأفكاره وأطروحته، فيغيّر بذلك اعتقاد ذلك المتلقي في تلك المسألة، فهدفه الأول والأخير هو الإقناع يقول فليب بروتن: "ينتمي الحجاج إلى عائلة الوظائف الإنسانية

---

(1)- Jean-Michel Adam, l'argumentation dans le dialogue, Langue Française, n°112, Larousse, Paris 1996, P35.

(2)- Christian Plantin, Essays sur l'argumentation. Introduction à l'étude linguistique de la parole argumentative, Edition kiné, Paris 1990, P 205.

التي يعدّ الإقناع غايتها".[1]يلجأ الإنسان إلى الحجاج عندما يريد أن يقنع الآخرين بما يريد.

يحقق الحجاج تغييرا في المعتقدات دون عنف أو إرغام، وهذا هو مكمن أهميته يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: "... تكمن أهمية الحجاج في كونه بديلاً عمليًا لكثير من وسائل الإرغام مثل القوّة المادية، وبذلك فهو الأداة التي تضمن التغيير في معتقدات المرسل إليه دون خسران (...) وهذا ما جعل الحجاج الركيزة في كثير من العمليات الثقافية"[2]، يتمكن الحجاج من تغيير معتقدات المتلقين بكل رفق دون اللّجوء إلى القوة، فاستعمال القوة قد يؤدي إلى الخضوع والاندفاع وليس بالضرورة اقتناع، لكن الحجاج يحقق الإقتناع لدى المتلقي ما جعل عديد المجالات تستعين به، كمجال الدعوة، الإشهار، التربية وغيرها من المجالات، فهو "الآلية المثلى لحلّ الخلافات وتوحيد وجهات النّظر، أو على الأقل تقريبها، وتقليص شقة النزاع".[3]

يهدف الحجاج إلى جعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، وينجح الحجاج عندما يقوى درجة الإذعان لديهم بشكل يبعثهم على أداء العمل المطلوب (قبول أو رفض) أو على ا لأقل أن يجعلهم مستعدين للقيام بذلك العمل في الوقت المناسب.

نشير في الأخير إلى أنّ الحجج تتغيّر حسب ظروف المجتمعات وأهدافهم، فالحجة التي كانت صالحة بالأمس قد لا تكون صالحة اليوم.

---

[1]- Philippe Breton, L’argumentation dans la communication, P 03.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 459.

[3]– المرجع نفسه، ص 461.

الفصل الثاني

الفصــل الثـــانـــي: خصـــائــص الـنــص الـحجـاجــي عند الجـرجـانــي

1- مكـــونـــات النـــص الحجـــاجـــي

1-1- المرسل.

1-2- المتلقي.

1-3- الحجج.

1-4- النتيجة.

2- خصـــائـــص النـــص الحجـــاجـــي

2-1- القصد المعلن.

2-2- التناغم.

2-3- الاستدلال.

2-4- البرهنة.

2-5- الحوارية.

3- شـــروط نجـــاح النـــص الحجـــاجـــي

3-1- الحياد.

3-2- شروط الخطيب.

3-3- وضعية الباث و المتلقي.

3-4- حسن اختيار الألفاظ.

3-5- القدرة على شد انتباه السامعين.

3-6- التمكن من إحداث تغيير في أفكار و سلوك المتلقي.

1 مكــونـــات النــصّ الحجـــاجـــي:

يقوم المرسل أثناء حجاجه بإنتاج سلسلة من الحجج التي يحقّق بها أهدافه؛ إقناع المتلقي والتأثير فيه، و ذلك من خلال تقديمه الحجج المدّعمة لأطروحته المعروضة من جهة و تقديم الحجج الداحضة للأطروح ة المرفوضة. فالنص الحجاجي يقابل بين: «قطبين متناقضين هما: نصير الأطروحة المعروضة # نصير الأطروحة المدحوضة المرفوضة أو يستدعي بالأحرى أطرافا ثلاثة إذا اعتبرنا حضور رأي ملتبس غامض متردّد يتعلّق الأمر باستدراجه إلى الأطروحة المعروضة فينبني عندئذ النصّ الحجاجي بناءً ثلاثيا... »[1]؛ قد يبنى النص الحجاجي –حسب سامية الدريدي– بناءً ثنائيا؛ يضمّ طرفان: طرف يساند الأطروحة المعروضة و طرف ثان يعارض تلك الأطروحة، وقد يبنى بناءً ثلاثيا حيث يضاف إلى الطرفين المذكورين طرف ثالث و هو الطرف المتردّد في تبني الأطروحة المعروضة فنحاول إقناعه بقبول الرأي المعروض و الذي نسانده. هذا النوع نجده في المقالات الفلسفية الجدلية عادة.

غير أنّنا نجد بناءً آخر يختلف عمّا ذكرناه، وهي نصوص حجاجية «تتأسس على إقناع المتلّقي بوجهة نظر ما و حمله على تغيير وضعه و استبدال موقفه الأصليّ بموقف ثان يدعو إليه مؤسّس النص فينبني نصّه هذا بناءً ثلاثيا مغايرًا للبناء الأول... »[2] هذه النصوص تختلف في بنائها عن النوع السابق، و هي تنبني على ثلاثة أطراف: نصير الأطروحة المعروضة، نصير الأطروحة المرفوضة، المتلقي حيث يسعى صاحب النص إلى إقناع المتلقي باعتباره هدف الحجاج و كذا باعتباره نصير الأطروحة المرفوضة حيث يحاول صاحب النص تغيير موقفه و جعله يتبنى الموقف الذي يعرضه صاحب النص.

يدرج جلّ الباحثين الحجاج في المثلث الكلاسيكي الذي تهتمّ به كل علوم التواصل والذي يتكون من المرسل، الرسالة، المتلقي، كما يذهب إليه فليب بروتن «فعل الحجاج يندرج إذا في المثلث التقليدي مرسل (émetteur)– رسالة (message)– متلقي (récepteur) و الذي يدرس بكلّ أشكاله من طرف مختلف علوم الإتصال" [3] يذهب فليب بروتن في هذا الإتجاه في بداية حديثه، لكنه بعد ذلك يذهب إلى ضرورة التفكير في مخطط للتواصل في حالة الحجاج إذ لابدّ من التمييز بين عدّة مستويات كرأي المرسل، المرسل، الحجة التي يدافع عنها المرسل، المتلقي الذي يريد المرسل إقناعه و سياق التلقي. و بهذا ينتج لنا مخطط جديد لعملية التواصل في حالة الحجاج، يقول: «في الحقيقة نستطيع أن نميّز في الحجاج بين المستويات التالية:

---

(1)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 28.

(2)– المرجع نفسه، ص 29.

(3)- Philippe Breton, l'argumentation dans la communication. P8.

-رأي المرسل (l'opinion)، و هو ينتمي إلى ميدان المحتمل (vraisemblable)، سواء كان أطروحة (thèse)، أو سبب (une cause)، فكرة (une idée)، وجهة نظر (point de vue). هذا الرأي يوجد كما هو قبل أن يستعمل كحجة.

ليس ضروريا أن تتحوّل الآراء إلى حجج، إذ يمكن الاحتفاظ بالآراء دون أن نحاول إقناع الآخرين بها؛ أو إخبارهم بأننا نتمسك بها ».[1] تتسم آراء المتكلمين بالاجتماعية أي أنها تقبل الصحة والخطأ، و هي إمّا فكرة أو أطروحة أو وجهة نظر. كما أن هذه الآراء يمكن أن تبقى آراء يحتفظ بها الشخص لنفسه وقد يحاول المتكلم إقناع غيره بتلك الآراء فتتحوّل بذلك إلى حجج يدافع عنها. فقد يعتقد شخص من الأشخاص أن الكتب الإلكترونية أفضل من الكتب الورقية، فوجهة النظر هذه قد يحتفظ بها الشخص لنفسه، وقد يخبر بها غيره لمجرّد الإخبار فقط، وقد يحاول إقناع غيره بها فيقدّم الحجج التي تثبت رأيه و تقنع غيره.

المستوى الثاني الذي يجب تمييزه هو المرسل يقول: «المرسل (l'orateur)، و هو الذي يُحاجج لنفسه أو لغيره (و في الحالة الثانية عقد التواصل يجب أن يكون صريحا و المثال الأوضح لذلك المحامي الذي يحاجج لموكّله). المرسل هو الذي يملك رأيا، و يتموضع في موقف يمكنه من نقل ذلك الرأي إلى المستمع و تقديمه له لكي يتقاسمه معه (ليشاركه فيه) و بتعبير آخر كسب تأييده»[2]، المرسل هو الذي يقوم بعملية الحجاج، و هو إمّا يحاجج لنفسه أو لغيره؛ و في حالة الحجاج للغير لابد من اتفاق المتخاطبين المسبق و الصريح حول هذه العملية، و المرسل هو الذي يملك رأيا و يكون في موضع يمكنه من نقل آرائه إلى المستمع كي يكسب تأييده ويتمكن من إشراكه في آرائه.

نجد في مستوى ثالث الحجّة المدافع عنها من طرف المرسل يقول فليب بروتن في هذا الشأن:«الحجة المدافع عنها من طرف المرسل، يتعلق الأمر بالرأي الذي نحاول الإقناع به؛ يتدفق الرأي إذن في منطق حجاجي. يمكّن من تقديم الحجة عن طريق الكتابة (في كلمة، رسالة، كتاب، رسالة معلوماتية)، عن طريق الكلام المباشر و غير المباشر (مثال ذلك: الإذاعة أو الهاتف)، أو عن طريق الصورة».[3]

الحجة كما هو واضح هي الرأي الذي يعرضه المرسِل و يدافع عنه و يسعى إلى إقناع المتلقي به، و تأخذ الحجة التي يدافع عنها المرسل عدّة أشكال، فقد يقدّم المرسل حججه كتابة في كتاب كما فعل الجرجاني في الدلائل أو في رسالة كرسالته الشافية أو يقدم المرسل حجتّه مشافهة

---

(1)- Philippe Breton, l'argumentation dans la communication. p 18.

(2)- Ibid, P 18-19.

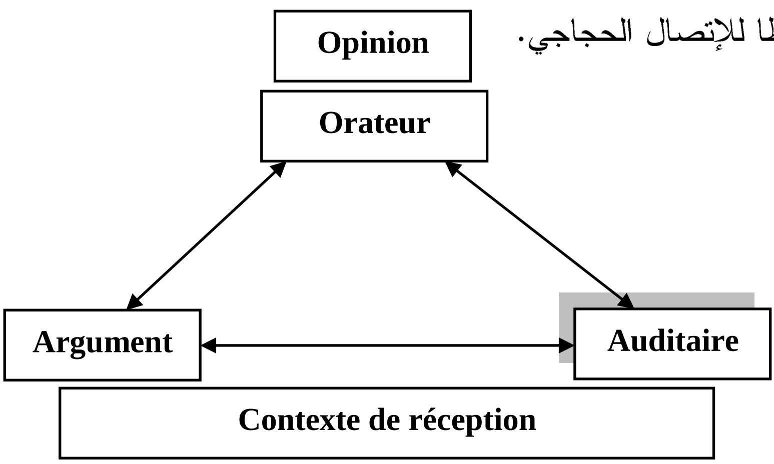
(3)- Ibid, p 19.

بطريقة مباشرة كالخطبة أو بطريقة غير مباشرة عبر الهاتف أو عبر المذياع، وقد يقدمها المرسل عن طريق الصورة كاللوحات الإشهارية أو عن طريق الإشهار التلفزيوني.

بقي عنصر رابع حسب فليب بروتن و هو المتلقي الذي يحاول المرسِل إقناعه و جاء في كتابه: «المتلقي هو الذي يريد المرسِل إقناعه للإنضمام للرأي الذي يعرضه عليه، وقد يكون شخصا معينا، أو جمهورا، أو مجموعة واسعة من الجماهير، أو قد يكون أيضا في حالة خاصة المرسل ذاته عندما يحاول إقناع نفسه (s'autoconvaincre)»[1] المتلقي إذن هو هدف العملية الحجاجية، حيث يفعل المرسل كلّ ما في وسعه لإقناع المتلقي بتبني الرأي الذي يعرضه المرسل وقد يحاول المرسل إقناع شخص واحد كنقاش بين صديقين في مسألة ما وقد يكون جمهورا كما هو الحال في الخطبة، أو قد يكون جمهورا واسعا وقد يتحقق ذلك عن طريق الكتاب أو وسائل الإعلام التي تصل إلى عدد هائل من الجماهير، و في بعض الحالات يكون المرسل نفسه هو المتلقي و ذلك عندما يحاول المرسل إقناع نفسه في حوار داخلي أو في المونولوغ على سبيل المثال.

آخر مستوى من مستويات العملية الحجاجية سياق الاستقبال أو التلقي (le contexte de réception) و يتعلّق الأمر بـــ: «مجموع الآراء، القيم، الأحكام التي يتشارك فيها مع متلق معين، وهي سابقة على فعل الحجاج و التي ستلعب دورا في تلقي الحجة، في قبولها، في رفضها أو تغيرات الإذعان التي يحدثها»[2] لابّد من الأخذ بعين الاعتبار الخلفيات المشتركة بين المرسِل و المتلقي سواء كانت قيم أو اعتقادات أو الأحكام التي نصدرها عن مختلف المسائل، فهي تلعب دورا هاما في قبول الآراء التي يعرضها المرسل أو رفضها، كما أنه قد يتردد في قبول ذلك الرأي.

سنقدم مخططا للإتصال الحجاجي.



(3)

---

[1]–Philippe Breton, l'argumentation dans la communication, P 19.

[2]– Ibid, p 19.

[3]– Ibid, P 20.

تعتبر الحجة و النتيجة من أهمّ مكوّنات العملية الحجاجية فا «الوضع الحجاجي يضم قضيتين جوهريتين: أولاهما الهدف الذي نروم الوصول إليه، أمّا الثانية فهي عقبة البراهين التي يستخدمها الآخر لإعاقة حججنا »[1] فأهم شيء عند المحاجج هو إقناع المتلقي و هو هدف الحجاج أمّا وسيلته في ذلك فهي الحجج.

يواجه المحاجج دائما أطرافا معارضة تقدّم الحجج التي تعمل على إضعاف أطروحة المرسِل، لهذا السبب كان على المرسِل إجتياز هذا الحاجز و إثبات أطروحته و تحقيق هدفه ألا و هو إقناع الطرف الآخر بها.

جاء في معجم تحليل الخطاب أنّ أكمل حجاج هو الـــذي يحتوي على خمسة عناصـــر وهـــي: النتيجة (la conclusion)، الحجة (l'argument)، دون- الحجـــج (les sous-argument)، إعـــادة الصيّاغة (la reformulation)، الملخص (le résumé).[2] قد نجد في بعض النصوص كل هذه العناصر، وقد نجد بعضها فقط، فالحديث هنا عن أتمّ و أكمل حجاج أي في الحالة المثالية، و هذه ليست حال كلّ النصوص، و لابدّ أن نشير إلى أن التوصّل إلى نتيجة ما قد يكون بالاعتماد على أكثر من حجة.

وضع عبد القاهر الجرجاني كتابه دلائل الإعجاز ليردّ فيه عن القائلين بالصرفة و كذا على المغالين في مسألة اللفظ و على القائلين في مسألة إعجاز القرآن الكريم، حيث أنّ هذه المسألة شغلت بال العديد من العلماء قبله و في زمانه و بعده، يحاول الجرجاني في الدلائل إقناع المتلقي بأن القرآن معجز بنظمه وقدّم الحجج المدعمّة لرأيه و المعارضة لغيره.

إذن يتكوّن النص الحجاجي لدى الجرجاني من مرسِل و هو صاحب الكتاب "الجرجاني"، متلقٍ و هو المعاصرين له و المتأخرين له من علماء و طلاب علم و غيرهم، نتيجة و هي أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه، مستعينا في ذلك بعدد من الحجج.

1 1 المــرسِــل:

تعدّ ترجمة الإمام الجرجاني من التراجم النادرة، و إن وجدناها فهي مختصرة.

ولد أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن الجرجاني بجرجان سنة 400هـــ، أخذ النحو عن أبي الحسين محمد الفارسي و كان من كبار أئمة العربية و البيان، فقيها على مذهب الشافعية، و الحق أن الإمام عبد القاهر كان شخصية فذة و من الشخصيات التي وقفت على أسرار البيان العربي و دقائقه، وله مصنفات عدة منها: أسرار البلاغة، و دلائل الإعجاز

---

(1)- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 125-126.

(2)- Voir, Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, dictionnaire d'analyse du discours, P 70.

والرسالة الشافية في إعجاز القرآن، والعمدة في التصريف، و له كتاب المغني في شرح الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي ثلاثون مجلدا.. توفي سنة 471هـ[1]. و هناك من يقول أنه توفي عام 475هـ و من بينهم المحقق محمود شاكر.

عقد الجرجاني فصول كتابه ليبيّن سرّ إعجاز القرآن الكريم، ففصّل الحديث في البلاغة والفصاحة، اللفظ و المعنى، و فصّل الحديث في علم المعاني كما أخذ الحديث عن الاستعارة والكناية حيّزا كبيرا من حديثه وقد «وفق في تقديم الأدوات الكفيلة بالكشف عن جماليات النص من خلال الوقوف عند المستويات اللغوية المختلفة »[2] و من تلك الأدوات نجد النحو الذي منحه الجرجاني مكانة عالية، و كان وسيلته في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم «ذلك أنّ النحو هو الذي يعطي كل تركيب لغوي خصوصية جمالية من خلال الصياغة و التأليف؛ لأن الألفاظ لا تملك خصوصية إلا من خلال التركيب الذي تصاغ فيه»[3] إذن فالنحو هو الأداة التي تكشف عن جمالية التراكيب اللّغوية لذلك أعطاه الجرجاني مكانة كبيرة يقول: «...إذا كان قد علم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، و أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، و أنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام و رجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه... »[4] يتضح من هذا القول المكانة التي يحتلها النحو عند الجرجاني، كما نجد في كتابه أيضا حديثا عن النظم.

يحسّ القارئ للدلائل أنّ الجرجاني يشركه في كتابه و ذلك من خلال استعماله لكاف الخطاب بشكل ملفت فقد «استطاع الجرجاني بما حباه به الله من قدرة التوصل إلى مواطن الجمال داخل النص، و من ثم تعليل الإعجاز القرآني بهذا المستوى من التحليل، بالوقوف على هذه الأنماط من الإنزياحات الأسلوبية، و كم كان الرجل واعيا بحساسية ما يقوم به، و لهذا نجده يحضر القارئ مخاطبا إياه خطاب الحاضر، و في ذلك دفع له للمشاركة في ما يأتي به مشاركة وجدانية، و من ثم يمثّل هذا الحضور نوعا من التكافؤ بين أنا المتكلم و كاف المخاطب من جهة، و من جهة أخرى قدرة على الإقناع والتعليل لتلك الإنحرافات اللغوية في النص »[5] إذن فللمتلقي دورا هاما في العملية الحجاجية.

---

[1]- عمر محمد باحاذق، شرح الرسّالة الشافعية في إعجاز القرآن الكريم للإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ط1، دار المأمون للتراث، بيروت 1998، ص 11.

[2]- محمد تحريشي، النقد و الإعجاز، ص 184.

[3]- المرجع نفسه، ص 184.

[4]- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة و علق عليه محمود محمد شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة 2004، ص 28.

[5]- محمد تحريشي، النقد و الإعجاز، ص 223.

1 2 المتلقـــي:

يذهب الباحثون في هذا المجال إلى أنه لا حجاج بدون موافقة المتلقي يقول فليب بروتن: «لا يمكن لحجاج أن يحصل دون موافقة المتلقي. يجب أولا أن يقبل أن يكون في موقع نقاش وأن يقتنع...»[1] إذ لا يتحقق الحجاج إذا كان الطرف الآخر يرفض المشاركة فيه و إذا كان لا يملك استعدادا للاقتناع بما يذهب إليه المرسل، لذلك كانت موافقة المرسل ضرورية لإمكانية حدوث الحجاج.

تجب الإشارة كذلك إلى أنّ المتلقي ليس بالشخص البسيط، الساذج بل له أفكار ومعتقدات لابد من مراعاتها يقول غرايز: «إنّ الذي نحاجج له ليس بسيطا. ففي نهاية المطاف أمر الاقتناع راجع إليه، بحيث أن نشاطه اتجاه التخطيط (une schématisation) حاسم، ونتيجة لذلك، وجب وضع ذلك التخطيط بطريقة تمكّن المتلقي من استقباله، قبوله و الإنضمام له»[2] لابد من مراعاة المتلقي أثناء بناء المرسل لحجاجه، حيث لابدّ أن يبني حجاجه بطريقة تمكّن المتلقي من قبول هذا الحجاج و الإقتناع به و تبنيه، كون الإقتناع يرجع إليه- إلى المتلقي- و ذلك لما كان نشاطه اتجاه هذا البناء- البناء الحجاجي- حاسما.

يبدو جليّا من خلال الإطلاع على المؤلفات التي خُصّصت لإعجاز القرآن أن مؤلفيها يملكون آراءً و أفكار حول هذا الموضوع حاولوا طرحها و الدفاع عنها بشتى الحجج و البراهين منذ أن قال "النظام" بالصرفة وصولا إلى عبد القاهر الجرجاني ثم المتأخرين عنه و الّذين رغم أنهم اخذوا من عنده إلاّ أنهم كانوا يملكون خلفياتهم المعرفية، لهذا السبب يقول فليب بروتن:«الحديث عن الحجاج في ميدان الإتصال يقتضي الأخذ بالحساب شروط استقبال الحجة فلا يطرح أي رأي في ميدان بكر (terrain vierge) (...) فهذا الرأي يدخل ضمن مجموعة من التمثيلات (représentation)، القيم، الاعتقادت الخاصة بالمتلقي المقصود»[3]، هذا ما نجده بالفعل عند علمائنا العرب الذين ألفوا في هذا الموضوع، فمنهم المعتزلي و منهم المحدّث الخطابي و السنّي إلى باقي المذاهب الأخرى و لكلّ واحد موارد ثقافته و توجهه في البحث فمنهم الأديب اللّغوي و النحوي المتكلّم... لذلك وجب على المرسِل مراعاة كلّ هذه الأمور في بناء حجاجه.

---

(1)- Philippe Breton, l'argumentation dans la communication, p 53.

(2)- Jean Balise Grize, Argumentation et logique naturelle , revue Hermes cognitation, communication, politique, CNRS edition, N15, 1995, p 266.

(3)- Philippe Breton, l'argumentation dans la communication, p 22.

يملك المتلقي أثناء الحجاج الحرية في تبني رأي المرسل أو رفضه، فالإقناع لا يكون بالقوة، و هو ما يفعله الجرجاني عندما يعزم الردّ على القائلين في مسألة الإعجاز، يقول: «فإن كان ذلك يلزمنا [أي الردّ على الخصوم في مسألة الإعجاز] فينبغي لكل ذي دين أو عقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، و يستقصي التأمّل لما أودعناه، فإن عَلِمَ أنّه الطريق إلى البيان، و الكشف عن الحجةّ والبرهان، تبع الحقّ و أخذ به، و إن رأى له غيره أومأ لنا إليه، و دلّنا عليه، و هيهات ذلك »[1] يخبر الجرجاني القارئ بأنه سيقدّم له الحجة و البرهان في مسألة الإعجاز في كتابه، ثم يخاطب القارئ بأنّه حرّ في إتباع رأي آخر إذا وجد و يطلب منه الجرجاني أن يدلّه إلى هذا الطريق إن وجده.

لا نجبر المتلقي على إتباع ما نقول و ما نعتقد، و هذا نتيجة كون آرائنا احتمالية غير نهائية «السمة الاحتمالية للرأي الذي يتموقع في أعلى مخطط الاتصال –المذكور في ص 58- تحيل على ثلاث قواعد أخلاقية و التي تقول أنّ المتلقي حرّ في الخضوع أو الإنضمام إلى الأطروحة التي تعرض عليه (...) فالمرسل ذاته يؤمن بطريقة متغيرة لما يدافع عليه، لذلك وجب عليه مطالبة المتلقي بنفس الشيء، أي نفس درجة الخضوع (intensité d'adhésion)، و هذا ما يُوجد نوعا من الحرية للجمهور ».[2]المتلقي إذن حرّ في تبني آراء المرسل و ذلك بسبب كون هذه الآراء إحتمالية و المرسل نفسه لا يسلّم بها بطريقة مطلقة بل هو متذبذب إتجاه هذا الرأي، لذلك فإنه لا يستطيع أن يفرض آراءه على المتلقي الذي يبقى مخيّرا بين الأخذ بها وتركها.

يشير الباحث بعد ذلك إلى فكرة لطيفة جدا و هي أنّ المرسل يتحكّم بالمتلقي من خلال تركه حرّا اتجاه آرائه «يعتقد المتلقي بأنه يتعامل مع حجة تتركه حرّا، لكنه في الحقيقة بصدد مواجهة ملفوظ مراوغ (un énoncé manipulatoire) في مظهر حجة »[3] إن جعل المتلقي يعتقد بأنه حرّ في اختيار موقفه تعدّ أداة من أدوات إستراتيجية الإقناع، في كثير من الأحيان يلجأ المرسل إلى إتباع تقنيات المراوغة (la manipulation) كي يتمكن من إقناع المتلقي.

خاطب الجرجاني الزاهدين في الشعر و المحتقرين للنحو و الذين جعلوا الصرفة أساس الإعجاز و جعلوا الفضل للفظ مجردا من معناه.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص 9.

[2]- Philippe Breton, l'argumentation dans la communication, p 31.

[3]- Ibid, p 51.

ذكر الخطابي أقوال مختلف القائلين في مسألة الإعجاز فقد «ذهب قوم إلى أنّ العلّة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، و إن كانت مقدورا عليها، و غير معجزة عنها، إلاّ أن العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات »[1] إذن من اللذين ردّ عليهم الجرجاني و خاطبهم القائلين بالصرفة و الذين سبق الحديث عنهم في المدخل، و الذين يرون أنّ الإنسان كان قادرا على الإتيان بكلام مثل كلام الله عزّ و جلّ لكن الله صرفهم عن ذلك و سلبهم تلك المقدرة.

ردّ الجرجاني من خلال كتابه كذلك على طائفة زعمت أنّ «إعجازه إنّما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه: «**ألم- غلبت الروم في أدنى الأرض، و هم من بعد غَلَبِهِم سيغلبون. في بضع سنين...** » [الروم 1-4] التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها »[2] ذهب البعض إلى أنّ سرّ إعجاز القرآن يكمن فيما يحمله من أخبار غيبية تحققت في زمن الرسول أو بعده، لكنه كما هو معلوم ليست كل آيات القرآن الكريم تحتوي أخبارا عن الغيبيات بل هي آيات معدودة، لذلك كان مذهبهم خاطئ.

ممن خاطبهم الجرجاني كذلك الذين قالوا:«في القرآن كلام موزون كوزن الشعر، و إن كان غير مقفى، بل هو مُزَاوَجْ متساوي الضروب، و ذلك أحد أقسام كلام العرب »[3] للقرآن الكريم حلاوة تسلب العقول و تأسر القلوب و ذلك لتناسق عباراته و تجانس حروفها مما دفع العرب إلى اعتباره موزون يقول الجاحظ: «...و يدخل على من طعن في قوله تعالى «تبّت يدا أبي لهب » و زعم أنه شعر لأنه في تقدير: مستفعلن مفاعلن (...) فيقال له: إعلم انك لو اعترضت أحاديث الناس و خطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مفاعلن كثيرا، و ليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا... »[4] يذكر الجاحظ أنّ هناك من الناس من يعتبر القرآن الكريم شعرا من خلال تمكّنهم من وزن بعض الآيات على بحر من البحور، غير أنّ الجاحظ يرى أنّ أغلب قول الناس على هذا الوزن رغم ذلك فهو ليس بشعر.

ذكرنا هنا آراء السابقين عن الجرجاني أمّا المتأخرين عنه فنجد الزمخشري الذي يعدّ «بحق خير متمم لما جاء به عبد القاهر (...) و الذي يتتبّع ما جاء به الزمخشري يصل إلى قناعة أن الرجل أراد أن يتمّ ما بدأه الجرجاني و أن يجعله على آفاق أخرى و مجالات أوسع

---

[1]– أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 22.

[2]– المرجع نفسه، ص 23.

[3]– أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ب ط، دار المعارف، مصر، ب ت. ص 84.

[4]– أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبيين، ج1. ص 235.

وأرحب...»[1] أخذ عن الجرجاني الكثير من المتأخرين لكن الزمخشري كان أبرزهم فكاتبه الكشاف يعدّ من المصادر الأساسية التي أسست لنظرية النظم.

إنّ اعتماد الباحثين على آراء الجرجاني يدلّ على أنه تمكن من إقناعهم بما ذهب إليه، أي أنه تمكّن من أدواته و وسائله.

1 3 الحجــج:

تعدّ الحجج أداة المرسِل في تحقيق هدفه، و هو إقناع المتلقي، عرّف الجاحظ الحجّة بقوله: «إنّ كلّ منطيق محجوج، و الحجة حجتان: عيان ظاهر، و خبر قاهر. فإذا تكلمنا في العيان و ما يفرع منه فلا بّد من التعارف في أصله و فرعه منه، و لابد من التصادق في أصله، و محال كون الفرع مع عدم الأصل، و كون الاستدلال مع عدم الدليل. و العقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل، و لابد لكلّ واحد منهما من صاحب، و ليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر. و العقل نوع واحد و الدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، و الآخر مجيء خبر يدل على صدق »[2] يجعل الجاحظ الحجة نوعان، فهي إمّا مادية تدركها الأبصار وأخرى كلامية منطوقة أو مكتوبة، فالمادية مثلا: لإقناع شخص ما بالإقلاع عن التدخين نقدّم له صورا لأشخاص أصابهم السرطان جرّاء التدخين، وصور الأعضاء المريضة، أمّا الحجج القولية أو كما أطلق عليها الجاحظ "الخبر القاهر" فهي الأقوال التي ندرجها في حجاجنا كالآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و غيرها من الحجج.

جاء في معجم المصطلحات العربية الحجة هي: «ما يراد به إثبات أمر أو نقضه»[3] إذن الحجة هي ما يستعمله طرفا العملية الحجاجية لإثبات أرائهم و بعض آراء المعارضين، أو ما يستعمله المعارضون لإثبات آرائهم كذلك.

يرى طه عبد الرحمن أنّ مفهوم الحجة قد اتسع فـــ: «عندنا أنّ كلّ قول حتى و لو كان لفظا واحدا هو حجة [*] دخل الحذف على بعض عناصرها لاعتبارات سياقية أو مقامية »[4] فالحجة قد تكون نصا أو فقرة أو جملة أو حتى لفظ كما ذكر طه عبد الرحمن حذفت بعض

---

[1]– محمد تحريشي، النقد و الإعجاز. ص 190.

[2]– الجاحظ، رسائل الجاحظ (الكلامية). ص 128–129.

[3] مجدي وهبة و كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللّغة و الأدب، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت 1984. ص 144.

[*]– فرّق طه عبد الرحمن بين الحجة و الدليل يرى أن «"الدليل" أهم من "الحجة" فلا يقصد للعمل به فحسب، بل قد يوضع لمجرد النظر فيه كما لا يؤتى به في موطن الرد على الخصم فقط، بل قد يبنى في موطن مستقل عن أية خصومة»، اللسان و الميزان، ص 137.

[4]– طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، ص 255.

عناصرها مهما كانت الأسباب (مقامية أو سياقية). جاء كتاب الدلائل زاخرا بالحجج و في مختلف المسائل التي ناقشها، والتي سنذكر بعضها في هذا العنصر.

تناول الجرجاني عدّة مسائل و ناقش عدّة قضايا، من بين القضايا التي تناولها مكانة علم البيان الذي ينتهي إليه الإعجاز، غير أنّ الناس ابتعدوا عنه و لم يطلبوه و لم يتمكنوا من اكتشاف دقائقه والسبب في ذلك هو سوء اعتقادهم في الشعر و علم الإعراب.

يذكر الجرجاني في قضية الزهد في الشعر الحجج التي اعتمدوها، يقول: «أما الشعر فخُيِّل إليها أنه ليس فيه كثير طائلٍ، و أنْ ليس إلاّ مُلْحةً أو فكاهة، أو بكاء منزل أو وصْفَ طَلَلٍ، أو نعت ناقةٍ أو جمَل، أو إسْرافَ قولٍ في مدح أو هجاء، و أنه ليس بشيء تمسُّ الحاجة في صلاح دينٍ أو دُنْيا »[1] ترى هذه الطائفة أنه لا توجد فائدة في الشعر و أنه يقال لمجرّد التسلية وهو لا يتجاوز أن يكون مجرّد وصف للأطلال و الأمور المحيطة بهم فلا يفيد في الدنيا و لا في الدين.

ردّ الجرجاني على هؤلاء بأن ذكر مكانة الشعر الذي هو ديوان العرب و أنّ الصدّ عنه صدٌّ عن معرفة حجة الله، يقول: «...إن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن و ظهرت، وبانت و بهَرَت، هي أن كان على حدّ من الفصاحة تقصُر عنه قوى البشر، و منتهيا إلى غاية لا يُطمَح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك، إلاّ من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، و عنوان الأدب(...) كان الصّاد عن ذلك صادّا عن أن تُعْرَف حجة الله تعالى، و كان مَثَلُه مثل من يتصدّ للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى و يقوموا به و يتلوه و يقرئوه، و يصنع في الجملة صنيعا يؤدي أن يقلّ حُفّاظة و القائمون به و المقرئون له... »[2] يقرّ الجرجاني بأنه لا يتمكّن من معرفة سرّ إعجاز القرآن إلاّ من كان على دراية واسعة بالشعر، فالعارف بالشعر عارف بأسرار اللّغة و هو بذلك يتمكن من معرفة جمالية اللّغة في القرآن الكريم، و يعتبر الجرجاني الصاد أو المنكر للشعر كالصادّ عن كتاب الله عزّ و جل و المنكر له، و هذا دليل واضح على مكانة الشعر، و يشبه الذي ينقص من مكانّة الشعر ويحطّ من قيمته بالذي يمنع الناس من قراءة كتاب الله و تلاوته. ثمّ يشبّه الجرجاني حالة الصدّ عن الشعر الذي يؤدي إلى الصدّ عن كتاب الله بالذي يعدمك الدواء الذي تستشفى به من دائك و الذي لا يختلف كثيرا عن الذي يعدمك العلم بان فيه شفاء، و أنّ لك فيه استبقاء.[3]

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 18.

[2]– المصدر نفسه، ص 8-9.

[3]– ينظر، المصدر نفسه، ص 9.

رأى المعتزلة أنّ الجرجاني قد أخطأ فيما ذهب إليه، و أنّ لهم طريقا في الإعجاز غير الذي قاله «و هو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله و تَرْكِهم أن يعارضوه، مع تكرار التحدّي عليهم، وطول التفريغ لهم بالعجز عنه. و لأنّ الأمر كذلك، ما قامت به الحجّة على العجم قيامها على العرب، و استوى الناس قاطبة، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجا بالقرآن».[1] رفض الجرجاني مذهب هؤلاء الذي لا يحاول البحث عن سرّ الإعجاز بقوله:«فإذا كنت لا تشكّ في أنّ لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلاّ أنّ الوصف الذي له كان معجزا قائم فيه أبدا، و أنّ الطريق إلى العلم به موجود، و الوصول إليه ممكن، فانظر أيّ رجل تكون إذا أنت زَهِدت في أن تعرف حجّة الله تعالى، و أثرت فيه الجهل على العلم، و عدم الاستبانة على وجودها، و كان التقليد فيها أحبّ إليك و التعويلُ على عِلْمِ غيرِك أثر لديك، و نحَّ الهوى عنك، و راجع عقلك، و اصدق نفسَكَ، يَبِنْ لك فُحْشُ الغَلَط فيما رأيت، و قبح الخطأ في الذي توهَّمْتَ»[2] يرى الجرجاني أنّ أقبح رأي و أعجزه هو الذي لا يريد أن تعرف حجة الله تعالى من الجهة الأوضح و الأقوى و الذي يفضّل أن تبقى تلك الحجة مغمورة، ضعيفة لا تقوى على التصدي لآراء كافة الناس.

وضع الجرجاني فصلا كاملا ليردّ فيه عمن زهد في رواية الشعر و حفظه، و ذمَّ الاشتغال بعلمه و تتبُّعه، فذكر الحجج [*] التي ذكرها هؤلاء و اعتمدوها في اتخاذ موقفهم هذا، فردّ على كل فريق بحجج كثيرة –لا يسعنا المقام لذكرها– تفنّد آراءهم و تثبت وجهة نظره هو، و من بين حججه أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم كانت له دراية بالشعر و أنه كان يستنشده ويستحسنه و يسمعه بل ويرتاح عند سماعه.[3]

انتقل الجرجاني للردّ على من احتقر النحو و زهد فيه، فجاء في كتابة عن هذه الطائفة أنها:«...ظنّته ضربًا من التكلّف، و بابًا من التعسُّف، و شيئًا لا يستندُ إلى أصل، و لا يُعتمدُ فيه على عقل، و أنّ ما زاد منه على معرفة الرّفع و النّصب و ما يتّصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا، و لا تحصل منه على فائدة... »[4] يعتبر النحوّ أهم شيء في نظرية النظم التي هي مكمن إعجاز القرآن كما أثبته الجرجاني، لذلك لم يتفق مع هؤلاء في

---

(1)– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 9–10.

(2)– المصدر نفسه، ص 10.

(*)– ذكر ثلاثة حجج و هي: 1– بسبب ما يحتويه الشعر من هزل أو سُخف، و هجاء و سبّ و كذب و باطل. 2– كونه موزون مقطن. 3– ما يتعلّق بأحوال الشعراء بأنها غير جميلة و أنهم قد ذُمّوا في التنزيل. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص 11.

(3) ينظر، المصدر نفسه، ص 16–23.

(4)– المصدر نفسه، ص 8.

مذهبهم هذا، بل أعطى النحو مكانة كبيرة جدّا و اعتبر أنّ إهمال النحو و احتقاره بمثابة صدّ عن كتاب الله، و عن معرفة معانيه ويرى أن مذهبهم هذا أشنع من احتقارهم للشعر و زهدهم فيه.

من حجج هؤلاء قولهم: «إنّا لم نأب صحّة هذا العلم، و لم ننكر مكان الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى، و إنما أنكرنا أشياء كثّرتُموه بها، و فُضُولَ قول تكلّفتُموها، و مسائلَ عَوِيصة تجشمتم الفكر فيها، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين، وتعابوا بها الحاضرين »،[1] يعطي الجرجاني الحقّ لهؤلاء فيما يتعلّق بمسائل التصريف التي يضعها النحويون للرياضة و لتمكين المقاييس في النفوس كما أنه يغضّ النظر عن إهمالهم تقرير المقاييس التي أطّردت عليها الكلمات وكذا ذكر العلل التي أدّت إلى ذلك و الحديث عن الإبدال والحذف و الإسكان و عن النون التي هي عوض عن الحركة بالإضافة إلى الكلام على ما ينصرف و ما لا ينصرف و بيان سبب المنع و العلّة فيه رغم أنّه يرى أنّهم قد أساؤوا الإختيار و أنّهم منعوا أنفسهم إدراك علوم كثيرة.

يردّ الجرجاني على هؤلاء بعد أن يسألهم هل تمكنوا من الإحاطة بحقائق الجزء الذي اعترفوا بصحتّه و الحاجة إليه كالكلام عن المبتدأ و الخبر و أقسام الخبر [*]، الصفة و المسائل المتعلّقة بها[**]، و هم في مذهبهم هذا إمّا منكرون أن تكون لهم حاجة في كتاب الله تعالى، في خبر رسول الله صلى الله عليه و سلم، و في معرفة الكلام جملة إلى شيء من هذه الأمور، وهو ما لا يقبله العقل و إمّا يعترفوا بخطئهم عندما استصغروا شأن هذا العلم.

يردّ على هؤلاء بقوله: «هذا، و لو أنّ هؤلاء القوم إذا تركوا هذا الشأن تركوه جملة، وإذا زعموا أن قدْرَ المُفتقَر إليه القليل منه، و اقتصروا على ذلك القليل، فلم يأخذوا أنفسهم بالفتوى فيه، والتصرّف فيما لم يتعلموا منه، و لم يخوضوا في التفسير، و لم يتعاطوا التأويل، لكان البلاء واحدا، ولكانوا إذا لم يبنوا لم يهدموا، و إذ يصلحوا لم يكونوا سببا للفساد، و لكنهم لم يفعلوا، فجلبوا من الدّاء ما أعي الطبيب، و حيّر اللبيب، و انتهى التخليط مما أتوه فيه، إلى حدّ يئس من تلافيه، فلم يبق للعارف الذي يكره الشّغب إلا التعجب و السكوت »[2] إذن ترك النحو

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 29.

[*]– فالخبر قد يكون مفردا و جملة، و أن المفرد ينقسم إلى ما يحتمل ضميرا له و إلى ما لا يحتمل الضمير، وأن الحملة على أربعة أضرب، ينظر، عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، ص 30.

[**]– المسائل المتعلقة بالصفة كثيرة: أنها تتبع الموصوف، و هي إمّا صفة تخصّص أو توضّح و تبيّن و أن منها ما لا يكون فيها تخصيصٌ و لا توضيح بل هي مؤكدة و هناك صفة يراد بها المدح و الثناء، و معرفة الفرق بين الصفة و الخبر و الحال، ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 31.

[2]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 31.

بعضه أو كلّه آفة خطيرة أعيت العلماء والعارفين، و الجرجاني يتبرأ من هذا الفعل و يطلب الهداية لهؤلاء لأنّ صنيعهم هذا مشين.

بعد الحديث عن مكانة الشعر و النحو و الدور الكبير الذي يلعبان في الكشف عن الإعجاز ينتقل إلى الحديث عن مكمن الإعجاز؛ عمّا أعجز العرب؟

يرى الجرجاني أن التدبّر في الفصاحة يساعد على بلوغ الغاية المنشودة و هي معرفة حجة الله تعالى من الوجه الأضوء لها و الأنوه لها، و يقول لقارئيه أنّ هذه الغاية لن تتحقق إلا في نهاية كتابه.

و في الردّ على المعتزلة في مسألة الإعجاز يقول الجرجاني أيضا: «إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنهم حين سمعوا القرآن، و حين تحدّوا إلى معارضته، سمعوا كلاما لم يسمعوا قطُّ مثله، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز عن أن يأتوا لما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه، لكان محالا أن يَدَعُوا معارضته وقد تحدّوا إليه، و قُرِّعوا فيه، و طولبوا به، و أن يتعرّضوا لِشَبَا الأسنة، و يقتحموا موارد الموت»[1] بعد ذلك يذكر الجرجاني تساؤل المعارضين عندما قالوا: «قد سمعنا ما قلتم، فخبرّونا عنهم، عمّا ذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها و صِحَّتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم: «عن الألفاظ»، فماذا أعجزهم من اللّفظ، أم ما بَهَرَهم منه؟»[2]، قام نقاش طويل حول مسألة اللّفظ و المعنى، فأجابهم الجرجاني بقوله:«أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، و خصائص صادفوها في سياق لفظه، و بدائع راعتهم من مبادئ آيه و مقاطعها، و مجاري ألفاظها، و مواقعها، وفي مضْرب كل مثل، ومساق كل خبر، و صورة كل عظةٍ و تنبيه، و إعلام و تذكير، و ترغيب وترهيب، و مع كل حجّة وبرهان، و صفة و تبيان و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، و عُشرًا عُشرًا، و آيةً آيةً، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، و لفظة ينكر شأنها، أو يُرَى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى و أخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، و أعجز الجمهور، و نظاما وإلتئاما، وإتقانا و إحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم، و لو حكّ بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي و تقول، و خَذيت القروم فلم تملك أن تصول »[3] إذن يذكر الجرجاني في هذه الفقرة التي نقلناها على طولها لأنها تلخيص لمحتويات الكتاب، فباقي الصفحات هي تفصيل وتحليل لهذه الحجج؛ و هي: المزايا التي يمتاز بها نظم القرآن الكريم :

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 39.

[2]– المصدر نفسه، ص 39.

[3]– المصدر نفسه، ص 39.

-الخصائص التي وجدوها في سياق لفظه.
-بدائع راعتهم من مبادئ آيه و مقاطعها و مجارى ألفاظها و مواقعها في مختلف ضروب الكلام (الخبر، الوعض، التنبيه، الترغيب، الترهيب، الحجاج و الجدال...).
-خلو سوره بل آياته من كلمات ينبو بها مكانها و لفظة ينكر شأنها أو يكون مكانها أصلح لغيرها.
-اتساق القرآن الذي بهر العقول، و أعجز الجمهور.
-نظامه و إتقانه و إحكامه الذي لم يدع في نفس بليغ منهم موضع طمع.

هذه هي الحجج التي ذكرها الجرجاني لينقع خصومه برأيه، ثم يطلب من القارئ أن يبحث في هذه الأمور و يقف عليها و يحيط بها، ليقوم بعد ذلك بتفصيل الحديث فيها حيث يكون كلامه حجة لسؤال الخصوم في آية من آيات القرآن الكريم و حتى يتمكّن من إقناع هذا السائل.

ردّ الجرجاني في أواخر كتابه على الذين اعتبروا أنّ القرآن الكريم معجز بلفظه أو بمعاينه أو بموسيقاه أو بقافيته، فيذكر: «إنّ هذا الوصف [أي الإعجاز] ينبغي أن يكون وصفا قد تجدّد بالقرآن و أمرا لم يُوجَدْ في غيره، و لم يعرف قبل نزوله، و إذا كان كذلك، فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في «الكَلِمَ المُفْردة»، لأنّ تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، و هو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في مذاقه حروفها و أصدائها أوصاف لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، و تكون قد اختصّت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوّة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن»[1]، يردّ الجرجاني هنا على الفريق الذي جعل ألفاظ القرآن الكريم معجزة، و هذا أمر مستحيل حسب الجرجاني، فألفاظ القرآن الكريم هي الألفاظ التي استعملها و يستعملها العربي في حديثه اليومي، و شعره و خطبه، لذلك لا يمكن أن تتّسم الألفاظ بالإعجاز في النص المقدس ثم تتنحى عنها هذه الصفة خارجه.

زعمت طائفة أخرى أنّ الإعجاز يكمن في معاني الكلمات فردّ عليهم: «و لا يجوز أن تكون في «معاني الكلم المفردة»، التي هي لها بِوَضْع اللّغة، لأنّه يؤدي إلى أن يكون قد تجرّد في معنى «الحمد» و «الرب»، و معنى «العالمين» و «الملك» و «اليوم» و «الدين»، و هكذا، وصْفٌ لم يكن قبل نزول القرآن. و هذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال و أشنعَ لكان إيّاه»[2]؛ يذهب الجرجاني إلى أنّ الكلمات المفردة ليست معجزة في ذاتها، فلا يجوز أن تكون معاني المفردات قبل نزول القرآن عادية ثم بعد نزول القرآن أصبحت معجزة.

---

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 38.
(2)- المصدر نفسه، ص 386-387.

أرجع فريق آخر الإعجاز إلى ترتيب الحَرَكَات و السَّكَنَات فيردّ عليهم بقوله: «و لا يجوز أن يكون هذا الوصف في «تَرْتِيب الحركات و السّكنات»، حتى كأنهم تُحُدُّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زِنَة كلمات القرآن، و حتّى كأنّ الذي بان به القرآن من الوَصْف في سبيل بَيْنُونة بحور الشعر بعضها من بعض، لأنّه يخرج إلى ما تعاطاه مُسَيْلمة في الحماقة في: «إنا أعطيناك الجَمَاهِرْ فصَلِّ لِرَبِّك و جَاهِرْ »، «و الطاحِنات طَحْنًا ».[1] لم يُتَحَدَّ العرب بأن يأتوا بكلام موزون على وزن القرآن الكريم، فليس للقرآن الكريم وزن كأوزان الشعر و لو حاول شخص أن يأتي بكلام على زنة القرآن الكريم فإنه سيأتي بكلام سخيف كما نقلت عدّة كتب ما جاء به مسيلمة، نحو قوله «يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين و لا الوارد تنفرين»[2] و قال أيضا:«ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، بين شراسيف وحشى »[3] و قال آخر: «الفيل، و ما الفيل، و ما أدراك ما الفيل، له مشفر طويل، وذنب أثيل، و ما ذاك من خلق ربنا بقليل »[4] هذه بعض الترّهات التي تفوّه بها مسيلمة و غيره ممن ادعوّا معارضة القرآن الكريم.

زعم آخرون أنهم تُحدوا بأن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع و فواصل كالتي في القرآن الكريم، فيقول:«و كذلك الحكم إن زعم زاعم، أن الوصف الذي تحدّوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع، و فواصل، كالذي تراه في القرآن »، لأنه أيضا ليس بأكثر من التّعويل على مراعاة وزن. وإنّما الفواصل في الآى كالقوافي في الشعر، إلاّ إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي، لم يُعْوِزهم ذلك، و لم يتعذّر عليهم. وقد خُيِّل إلى بعضهم = إن كان الحكاية صحيحة = شيء من هذا، حتى وَضَع على مَازَعَمُوا فصول كلام أواخرها كأواخر الآى، مثل «يعلمون» و «يؤمنون» و أشباه ذلك »[5] يقول الجرجاني أنّ الإعجاز ليس بالإتيان بكلام له مقاطع و فواصل كما في آيات الذكر الحكيم، حيث اعتبروا هذه الفواصل بمنزلة القافية في الشعر.

امتاز العرب بقدرتهم الخارقة في القوافي، فلو كان التحدي من هذه الناحية لما عجزوا، وبالتالي فإن الإعجاز يكمن في مسألة أخرى ألا و هي النظم الذي وضع الجرجاني كتابه هذا لإثباتها والحجاج لها.

---

[1]–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 387.

[2]– أبو سليمان الخطابي، بيان اعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص55.

[3]– المرجع نفسه، ص 55.

[4]– المرجع نفسه، ص 55.

[5]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 387.

ذهب فريق آخر إلى أن الله تحدى العرب بأن يأتوا بالغريب الوحشي في كلام يعارضون به القرآن، فيردّ عليهم بقوله: «كيف؟ و أنتَ تقرأ السّورة من السّور الطَّوال فلا تجدُ فيها من الغريب شيئا، و تتأمّلُ ما جمعه العلماء في غريب القرآن، فترى الغريب مِنهُ إلاّ في القليل، إنّما كان غريبًا من أجل استعارة هي فيه، كمثل (و أُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ) (**سورة البقرة: 93)**، و مثل: (خَلَصُوا نجيًّا) (**سورة يوسف: 80)**، و مثل (فاصْدَعْ بما تُؤْمَر) (**سورة الحجر: 94)**، دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها، إنما ترى ذلك في كلمات معدودة كمثل: (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) (**سورة ص: 16)**، و (ذَّات أَلْوَاحٍ ودُسُرٍ) (**سورة القمر: 13)**،، و (جعل رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا) (**سورة مريم: 24)** ثم إنه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريبا، لكان محالا أن يدخل ذلك في الإعجاز، و أن يصحِّ التَّحدّى به ».[1] هكذا احتجّ الجرجاني على الفريق القائل بأنّ الإعجاز يكمن في الغريب الذي اشتمل عليه القرآن، غير أنّ ذلك غير صحيح كما وضّح ذلك لأن الغريب في القرآن نادرٌ و هناك من الناس من هو على دراية به.

1 4 الهــدف و النتيجــة:

بعد أن ردّ الجرجاني على كلّ طائفة يخرج بنتيجة مفادها: «إذا بطل أن يكون الوَصْف الذي أعجزهم من القرآن في شيء ممّا عدّدناه، لم يبق إلاّ أن يكون في «النّظم» لأنّه ليس–من بعدما أبطلنا أن يكون فيه– إلاّ "النظم" و «الاستعارة». و لا يمكن أن تجعل «الاستعارة» الأصل في الإعجاز و أن يقصر عليها، لأن ذلك يؤدّي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السُّوَرِ الطوالِ مخصوصة، و إذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن «النظم» مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. و إذا اثبت أنّه في «النظم" و التأليف»، و كنّا قد علمنا أن ليس «النّظم» شيئا غير توخّى معاني النحوِ و أحكامه فيما بين الكَلِم، و أنّا إن بقينا الدهرُ نُجهِد أفكارنا حتى نعلَم للكَلِمِ المفردةِ سِلكًا ينْظِمها، و جامعًا يَجْمَعُ شملها ويؤلفها و يجعل بعضها بسبب من بعض، غير توخى معاني النحو و أحكامه فيها، طلبنا ما كلّ محال دونه »[2]، قدّم الجرجاني لكل طائفة تحدّثت في مسألة الإعجاز الحجج الداحضة لآرائها، ثمّ يذكر رأيه و هو أنّ النظم و الاستعارة هما سرّ الإعجاز، لكنّه ينبّه إلى أنه لا يجوز جعل الإعجاز مرتبطا بالاستعارة فقط، لأن ذلك سيؤدي إلى نفي الإعجاز عن أغلب آي القرآن الكريم –بسبب وجود الاستعارة في آيات معدودات فقط– لذلك يخرج إلى أن الإعجاز يكون في النظم، و النظم ما هو إلاّ توخي معاني النحو بين الكلمات في النطق بعد أن ترتب المعاني في النفس.

---

(1)–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 396–397.

(2)–المصدر نفسه، ص 391–392.

يلاحظ القارئ للدلائل أنّ الجرجاني بحث فيه عن «معايير بلاغة الشعر باعتباره معجزة العرب في البلاغة، لينتهي من تحصيل هذه المعايير إلى تفوق القرآن الكريم، وقد ألح على هذه القضية في مقدمة الدلائل...»[1] ثم توصّل الجرجاني إلى نتيجة مفادها «فإذا ثبت الآن أنْ لا شكَّ و لا مِرْيَة في أن ليس «النظم» شيئا غير توخّي معاني النحو و أحكامِهِ فيما بين معاني الكَلِم، ثَبَت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن، إذا هو لم يطلبه في معاني النحو و أحكامه و وجوهه و فروقه، ولم يعلم أنها مَعْدِنه و مَعَانُه، و موضعه و مكانه، و أنّه لا مستنبَط له سواها، و أنّ لا وجه لطلبه فيما عداها، غارٌّ نفسَه بالكاذب من الطمع، و مُسْلِمٌ لها إلى الخدع، و أنه إن أبى أن يكون فيها، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزًا بنظمه، و لزمه أن يثبت شيئا آخر يكون معجزا به، و أن يلحق بأصحاب «الصَّرْفة» فيدفع الإعجاز من أصْله، وهذا تقرير لا يدفعه إلاّ معانِدٌ يعُدُّ الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزا و الثّباتَ عليه من بعد لزُوم الحجة جَلَدًا، و من وضَع نفسه في هذه المنزلة، كان قد باعدها من الإنسانية »[2]، سعى الجرجاني على طول صفحات كتابه إلى إثبات أن القرآن معجز بنظم، و أقرّ أن النظم ما هو إلاّ توخي معاني النحو في الكلم، و يرى أنه لا يعقل أن يبحث عن الإعجاز بعيدا عن هذه النظرية، لأن البحث عن إعجاز القرآن بعيدا عن معاني النحو هو ضرب من الكذب و الخدع والجهل، وهو بمثابة إخراج الإعجاز عن أصله. يرفض الجرجاني كلّ رأي يرجع الإعجاز إلى غير النظم و يحاول بكلّ الوسائل إقناع الآخر بالتخلي عن رأيه و إقناعه بما يقرّه هو.

2 خصـــائـــص النـــصّ الحجـــاجي:

توفّر اللّغة للمتكلّم سبلا شتى للتّعبير عن مختلف حاجياته، كالإخبار، و السؤال والحجاج... و غيرها؛ و لكلّ طريقة خصائص و مميزات تتّصف بها.

يتصّف النص الحجاجي بعدّة مزايا، منها: التناغم، الحوارية، نجاعة العرض أي كيفية صياغة النص و كذا القصد المعلن... و غيرها من الخصائص التي سيلي الحديث عنها.

جمع بنوا رونو سمات النص الحجاجي في النّقاط التالية:

2 1 القصد المعلن:

و هو البحث عن إحداث أثر ما في المتلقي أي إقناعه بفكرة معيّنة و هو ما يعبّر عنه اللسانيّون بالوظيفة الإيحائية للكلام.[3]

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص 353.

[2]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 526.

[3]- Voir, Benoit Renaud, le texte argumenté, le griffon d’argile, Québec, 1993, P 17 in سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 26.

لدى إطلاعنا على "الدلائل" نجد منذ البداية هذه الخاصية في كلام الجرجاني، فبعد أن تحدّث عن تعليق الكلم بعضها ببعض و عن وجودها في كلام العرب و كذا معرفتهم بها، تساءل عن الذي تجدّد بالقرآن من عجيب الرصف حتى أعجز جميع الخلق ثم أخبر بأنه سيجيب السائل عن هذه المسألة و يقدم له الحجج ليصبح كتابه حجة لكل سائل عن إعجاز القرآن.

يقول:«أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، و نردَّه عن ضلاله، و أن نطِبَّ لدائه، و نزيل الفسادَ عن رَائه؟ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين و عقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، و يستقصي التأمّل لما أودعناه، فإن عَلِمِ أنّه الطريق إلى البيان، و الكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحقّ و أخذ به، و إن رأى له طريقا غيره، أومألنا إليه، و دلّنا عليه، و هيهات ذلك!»[1]

2 2 التنـــاغـــم:

إنّ النص الحجاجي نص مستدل عليه لذلك يقوم على منطق ما في كلّ مراحله و يوظّف على نحو دقيق التسلسل الذّي يحكم ما يحدثه الكلام من تأثيرات سواء تعلّق الأمر بالفتنة (l'envoûtement) أو الانفعال (l'émotion) أو إحداث مجرّد تقدّم (progression)، و هذا يدلّ على ذكاء الكاتب (المرسل) و يشي بمعرفته الدّقيقة بنفسية المتلقي و قدراته و آفاق انتظاره، لذلك نراه يعلن أمرا و يذكر آخر، يختزل فكرة و يسهب في تحليل أخرى يسأل و يجيب بل قد يأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة فيتجلّى في نصّه سحر البيان و تتأكد فتنة الكلام.[2]

نلمس هذا التناغم جليا في الدلائل، حيث نجد الجرجاني يبدأ حديثه عن فضل العلم وأرقى العلوم عنده علم البيان و القرآن معجز ببيانه، ثم فصّل الحديث في أبواب البيان كما نجده في بعض الأبواب يسهب القول و يفصّل فيه و نجده يوجز في أبواب أخرى، كما أنه قد يثير مسألة في فصل معين ليعود إليه في مواضع أخرى مثل الحديث عن النظم، بينما نجد بعض المواضيع ذكرت في موضع واحد فقط.

استخدم الجرجاني أسلوب الاستفهام كثيرا مما يجعلك تحسّ انّه يخاطبك مباشرة، كما أن هذا الأسلوب منح نصه سحرا خاصا.

تحـدّث "غرايس" (Grize) عن خـاصية من خصـائـص الحجـاج و هـي التنـاغـم وقد جعلها على ثلاثة أشكال داخلية، خارجية، تخاطبية يقـول: «لابدّ للبناء الحجاجي أن يخضع لثلاثـة أنـواع من التناغم. تنـاغم داخلـي، الذي يعرف أيضا بالأنظمـة الشكليـة

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 9.

[2]- Benoit Renaud, le texte argumenté, P 17 in

سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 26–27.

و النماذج، تناغم خارجي، مرتبط بالمعارف المشتركة في الوضعية التخاطبية، تناغم نقول أنّه تخاطبي بين مختلف التمثيلات التواصلية و العاطفية التي ينتجها المتخاطبون»[1]، على المرسل أثناء بنائه لنص حجاجي أن يحقّق التناغم بمختلف أنواعه حتى يتمكن من تحقيق هدفه، أي إقناع المخاطب، فالنص الحجاجي لابدّ أن تتناغم عناصره الشكلية أي اللّغوية و تكون الأمثلة المقدّمة على علاقة بالموضوع، كما يجب عليه أن يحقق التناغم على المستوى الخارجي أي على مستوى المعلومات المشتركة بين طرفي الخطاب في وضعية تخاطبية معيّنة، و هناك تناغم مشترك أو ناتج عن وضعيات تخاطبية مختلفة تواصلية و منتجة من قبل المتخاطبين.

2 3 الاستـــــدلال:

و هو سياقه العقليّ أي تطوّره المنطقي ذلك أنّ النّص الحجاجي نصّ قائم على البرهنة فيكون بناؤه على نظام معين تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعليّ و تهدف جميعا إلى غاية مشتركة و مفتاح هذا النّظام لساني بالأساس فإذا أعدنا النص الحجاجيّ إلى أبسط صورة وجدناه ترتيبا عقليّا للعناصر اللغويّة ترتيبا يستجيب لنيّة الإقناع.[2] فالمرسل يبني خطابه بطريقة منطقية تخضع لقوانين محدّدة تحقّق له هدفه المرجو و هو الإقناع، كما أنّ الخطاب الذي نريد إقناع الأخر به لابدّ أن يكون مترابط الأجزاء و العناصر.

يشير الباحث من ناحية أخرى إلى الصفة اللّغوية التي يتسّم بها الخطاب الإقناعي، فهو عبارة عن عناصر لغوية مرتبة و مترابطة خدمة لهدف واحد: الإقناع.

بنى الجرجاني خطابه في الدلائل بناءً يقوم على البرهنة حيث ربط فيه بين عناصره والتي تشترك في الهدف و هو اثبات أن القرآن معجز بنظمه، ثم بيّن الفرق بين نظم الكلم و نظم الحروف، والنظم الذي يريده هو نظم الكلم و النظم –كما أكّد عليه و أثبته في كلّ مرّة– هو توخي معاني النحو، بعد ذلك انتقل إلى تفصيل بعض المسائل النحوية و كشف دقائق علم النحو التي تمنح الكلام سحرا وبيانا، فكلّ فصول كتابه تشترك في فكرة واحدة هي أن سرّ إعجاز القرآن هو نظمه.

---

(1)– Jean–Balise Grize, argumentation et logique naturelle. Convaincre et persuader, P 267.

(2)– ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 27.

2 4 البــرهنــة:

إليها تردّ الأمثلة و الحجج و كلّ تقنيات الإقناع مرورا بأبلغ إحصاء و أوضح استدلال وصولا إلى ألطف فكرة و أنفذها.[1] ساق الجرجاني في هذا السياق عدّة أمثلة من القرآن الكريم و الشعر العربي و احتجّ بعدد هائل من الحجج و وضّف عدّة تقنيات حجاجية و التي سيأتي الحديث عنها في الفصل الثالث.

2 5 الحــواريـــة:

يقرّ مختلف الدارسين على الخاصية الحوارية التي يتسّم بها النصّ الحجاجي «أثار العديد من الباحثين سمة أو خاصيّة أخرى عبّروا عنها بالحوارية أو التحاورية فالنّص الحجاجي في جوهره "حوار" مع المتلقي، حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسّس النص و متلقيه و هي علاقة تتّخذ دون شكّ أشكالا عديدة يكشفها الخطاب ذاته باعتباره يراهن أحيانا كثيرة على إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين بما جاء فيه، بل قد يطمح أحيانا إلى إقناع ما يسمّى بـــ:"المتلقي الكوني"...»[2] يجمع جلّ الباحثين أنّ النص الحجاجي هو حوار بين المرسِل و المتلقي حيث تربطهما علاقة ما يكشفها الخطاب ذاته من خلال الإستراتيجية التي يتبناها المرسِل قصد إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين و هذه الخاصية نلمسها جليّة عند الجرجاني في الدلائل من خلال توظيفه لكاف الخطاب بشكل ملفت للإنتباه «نَحَّ الهوى عنك» «و راجع عقلك» «أصدق نفسك» «تعلم انك قد زغْتَ عن المنهج »، كما نجده يستخدم الحوار نحو قوله: «فإن قال: إذا قال الله تعالى:«و ما علّمناه الشَّعْرَ و ما ينْبغِي لَهُ » [يس: 69]، فقد كَرِه للنبي صلى الله عليه و سلم الشعر و نزَّهه عنه بلا شُبْهة(...) قيل له: هذا منك كلامٌ لا يتحصَّل(...) و يطلبه لشيء سواه»[3] و يذكر في موقع آخر: «فإن قالوا: إنّا لم نأب صحّة هذا العلم [النحو]، و لم ننكر مكانَ الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى (..)

قيل لهم: خبِّرُونا عمَّا زعمتم انه فُضُولُ قولٍ، و عويصٌ لا يعود بطائل ما هو؟ فغن بدؤوا فذكروا مسائل التصريف التي يصغها النحويون للرياضة (...)

قلنا لهم: أمّا هذا الجنسُ، فلسنا نعيبُكم إن لم تنظروا فيه و لم تُعْنَوْا به، و ليس يُهِمُّنا أمره، فقولوا: فيه ما شئتم (...)»[4]

---

(1)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 27.

(2)– المرجع نفسه، ص 28.

(3)– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 25.

(4)– المصدر نفسه، ص 29.

استعمل الجرجاني الحوار على طول صفحات كتابه، ففي نهاية كتابه يقول: «ما أظنّ بك أيها القارئ لكتابنا، إن كنت وفَّيته حقَّه من النظر، و تدبّرته حقَّ التدبّر، إلاّ أنّك قد علمت علما أبى أن يكون للشكّ فيه نصيبٌ، و للتوقّف نحوك مذهب، أن ليس «النّظم» شيئا إلاّ توخّي معاني النحو وأحكامه و وجوهه و فروقه فيما بين معاني الكلم »[1] لا تكاد تخلو صفحة من الدلائل إلا و تجد فيه حضورا للجرجاني و متلقيه في حوار أخذ وردّ.

يرى عزّ الدين الناجح أنّ الحوارية هي التي تمنح النص طاقة حجاجية تسمح لنا بدراسة خطاب ما اعتمادا على البنى الحجاجية يقول: «الحوارية هي مقوّمات الحجاج الضمنية، و نقصد بذلك أنّها من قوادحه فلا حوارية دونما حجاج، هي التي سوّغت لنا بدء اعتبار الملفوظ[*] المدروس ذا طاقة حجاجية كثيفة »[2] إن وجود الحوار في نصّ من النصوص يخوّل لنا اعتباره نصّاً حجاجيًّا. ففي كلّ مرّة يتبادل متخاطبان الحديث حول مسألة من المسائل، فإن أحدهما يحاول إقناع الآخر برأيه، لذلك يعتبر الحوار دليلا على حجاجية النص.

يؤكد ما ذكرنا كذلك محمد سالم محمد الأمين الطلبة:«و يعد الحوار أنجح سبيل ينتهجها مرسِل الخطاب لدراسة حجج و مواقف مخاطَبيه بطريقة مقبولة تمنح حجاجه في النهاية النفاذ والمصداقية، و هما أمران لا يتمّان إلاّ عن طريق الحوار المؤسس على الاحترام و الحقيقة، والبعيد عن المكر و الاحتيال »[3] إذن الحوار المؤسس على الاحترام و الحقيقة هو الذي يمنح الحجاج المصداقية التي تمكنه من النفاذ إلى قناعة الشخص و التمكّن من تغييرها و التأثير فيها و جعلها تعتقد ما يريده هو.

يشير الباحث إلى مسألة غاية في الأهمية، و هي بناء الحوار على الاحترام للطرف الآخر والاعتماد على الحقيقة في بناء الخطاب و الابتعاد كل البعد عن الخداع و المغالطة والعنف.

يرى باختين فيما يخص هذه المسألة أنّ «التوجيه الحواري هو، بوضوح ظاهرة مشخصّة لكل خطاب، و هو الغاية الطبيعية لكل خطاب حي. يفاجئ الخطاب خطاب الآخر بكلّ الطرق التي تقود إلى غايته و لا يستطيع شيئا سوى الدخـــول معه في تفاعل حاد وحي »[4] إذن لا يخلو أي خطاب حسب باختين من الحوارية، بل يجعله غاية الخطاب الطبيعية، فكل خطاب

---

[1]–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 525

[*]– درس عزّ الدين الناجح في مقالته سورة الصمد، و هي المقصودة بقوله الملفوظ.

[2]– عزّ الدين الناجح، العبقرية الحجاجية في اللّغة العربية، ص 176.

[3]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 119.

[4]– تزفيتان تودوروف، باختين: المبدأ الحواري، ترجمة فخري صالح، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، عمان 1996، ص 147–148.

يدخل في حوار مع خطاب آخر و يتفاعل و هو ما نلمسه في الخطاب الحجاجي، فخطاب المحاجج يتفاعل مع خطاب المعارضين و يدخل في حوار معه.

تبقى الحقيقة من جهة أخرى في الحجاج نسبية «إنما الحقيقة في الحجاج نسبية و ذاتية لكن لا إلى غير حدّ و هي مرتبطة بالمقام و لا تكون إلا تحت أنظار جمهور سواء أكان جمهورا كونيا (Audio universel) أم خاصًا (Particulier) أم متكونًا من شخص واحد يحاوره الخطيب أم متكوّنا من شخص الخطيب وحده فهو الخصم و الحكم يحاجُّ نفسه »[1] سبق و أن تحدّثنا عن هذه المسألة؛ فالحقائق التي يريد المخاطب الإقناع بها ليست حتمية و نهائية كنتائج البرهنة بل هي نسبية احتمالية لكن ليس بصورة مطلقة، و ترتبط هذه الحقيقة بسياق الخطاب و عناصره و بصورة أخص المخاطب بكلّ أشكاله، سواء أكان خاصًا أي مجموعة محدودة من المخاطبين أو مخاطب كوني أو كان هذا المخاطب شخصًا واحدًا، كما أنّ المرسِل قد يكون هو المخَاطَب عندما يحاول الشخص إقناع ذاته.

يشير بيرلمان و تيتيكاه إلى «أنّ الحجاج مثلما أنه ليس موضوعيا محضا فإنه ليس ذاتيا محضًا أيضا بمعنى أنه ليس إقناعًا (persuasion) على اعتبار أنّ الإقناع يكون بمخاطبة الخيال والعاطفة ممّا لا يدع مجالاً لإعمال العقل و حرية الاختيار إذا من مقومات الحجاج عند المؤلفين "حرية الاختيار على أساس عقلي"»[2] ؛ الإقتناع في الحجاج سبيله العقل و ليس العاطفة و الخيال كالإستمالة، لذلك فالحجاج ليس ذاتيا محضًا و ليس موضوعيًا محضًا فهو يخاطب العقل و القلب و حقائقه نسبية أيضا فهي عبارة عن وجهات نظر المخاطبين فهي احتمالية إذًا.

يضيف حمادي صمود في سياق الحديث عن نسبية الخطاب الحجاجي أنه «...لا تكون الغلبة إلاّ لمن كانت حججه أكثر إقناعا و أوضح في نفس السامع. و ليست الغلبة، إن تمت، نهائية لأن المجال مفتوح أمام ما قد يحدث من الحجج و لم يتفطّن إليه الخطيب الأوّل أو بتغيّر سياق القول و نوع الجمهور »[3] إذن الغلبة في الحجاج ليست نهائية لأنّها قابلة للتغير، و ذلك عن طريق إحداث تغيير في السياق إذ قد يقتنع مجتمع بفكرة ما لا يقتنع بها مجتمع آخر بأي شكل من الأشكال و خير مثال على ذلك المسائل المتعلّقة بالعقيدة. وقد تكون فكرة في وقت من الأوقات مقنعة ثم تصبح بعد زمن غير مقنعة فالحجج متغيرة بتغيّر المكان و الزمان كما أنّ الخطيب أثناء محاولته إقناع جمهوره قد يغفل عن حجج ما قد تقلب الموازين فيصبح خطابه غير مقنع.

---

[1]- عبد إله صولة، الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 300.

[2]- Perlemanet Tytécaca, Traité l'argumentation, la nouvelle rhétorique, P 682 in.

عبد إله صولة الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته. ص 300-301.

[3]- حمادي صمود، مقدمة: في الخلفية النظرية للمصطلح، ص18.

يحتل اختيار الألفاظ مكانة عالية في العملية الحجاجية حيث «إنّ انتقاء اللّفظ لذو قيمة حجاجية ثابتة بحيث يبدو القول بالترادف في اللّغة قولا لا يخلو من شطط. صحيح أنّ بعض الدارسين و بعض الاتجاهات في دراسة الشعر ترى أنّ اختيار لفظة دون مرادفها قد يكون على أساس شكلي فهو لغاية إحداث التنغيم أو الإيقاع بحيث تبدو قيمة اللفظ قيمة شكلية محضة. لكنّ الخطاب الحجاجي لمّا كان مرتبطا دائما بالمقام الذي يقال فيه إنّما يعمد إلى استخدام هذه الكلمة دون مرادفها في اللّغة لكونها أنسب منه في ذلك المقام».[1]

و يعقد الباحث مقارنة بين اختيار اللّفظ في الشعر و اختياره في الحجاج ففي الأوّل قد يكون لمجرّد تحقيق الإيقاع بينما الثاني فإنه يحمل شحنة حجاجية و هي المناسبة لذلك المقام، ولتوضيح ذلك يعطي الباحث مثالا يقول: «...فقولنا عن زيد "إنّ له استعدادًا لإيقاع الناس في الخطأ"عوض "إنه كاذب" قد يكون المقصود منه إفراغ صفة "كاذب" من شحنتها السلبية و جعل اللّفظ المطلق على زيد له طابع الحكم الموضوعي غير المُنزِل إياه في منزلة المتّهم. و من هنا تنشأ الدّلالة الحجاجية التي لجملة "له استعداد لإيقاع الناس في الخطأ" و هي دلالة ليست للفظة "كاذب"»[2] من هنا نجد أنّ لفظة ما لها شحنة حجاجية لا نجدها في الثانية مع أنهما تعبران عن نفس المعنى، لهذا السبب أقرّ الباحث بأهمية اجتباء الألفاظ في الخطاب الحجاجي بما يقتضيه المقام.

يتوجّب على المرسِل أن يحكم عناصر عرضه حتى يتمكّن من التأثير في المتلقي وذلك عن طريق حُسن اختيار مقدّماته و عرضها بالطريقة المناسبة فــ «اختيار هذه المقدمات يخضع بدوره لطريقة العرض (la présentation) علما بأنّ اختيار عناصر الحجاج و عرضها عمليتان متداخلتان إلى حدّ أنهما تشكلان عملية واحدة. إنّ نجاعة العرض شرط ضروري لكلّ محاجة هدفها التأثير في جمهور السامعين بتهيئتهم للعمل المباشر سلوكا و بتوجيه أذهانهم وجهة معيّنة فِكرًا »[3] لا يمكن اختيار مقدّمات الحجاج بمعزل عن طريقة عرضها فهما عمليتان متلازمتان لا يمكن الفصل بينهما فهما بمثابة عملية واحدة ثم أنّ العرض إذا كان جيّدا فإنه يضمن نجاح الحجاج، أي لبلوغ غايته و هو التأثير في الجمهور ماديًّا أو معنويًّا.

تستدعي كلّ حجّة حجّة أخرى مضادة فلا يمكن أن نجد حجاج في اتجاه واحد إذ لابدّ من حجاج مضاد فــ«الاستعمال الاجتماعي للكلام يبرز للحجاج سمة مميّزة، فكلّ حجّة تفترض حجّة مضادة و لا وجود البتّة لحجاج دون حجاج مضاد باعتبار أن "الحقيقة" متى تنزّلت في إطار العلاقات الإنسانية و الاجتماعية صعب إدراكها و أضحت محلّ نزاع و جدال في غياب

---

[1]– عبد إله صولة، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 319–320.

[2]– المرجع نفسه، ص 310.

[3]– المرجع نفسه، ص 316–317.

الحجج المادية والموضوعية»[1] نلاحظ حضور هذه الثنائية في الدلائل ففي كلّ مسألة يعرضها الجرجاني إلاّ و نجد فكرة معارضة يحاول الجرجاني في كلّ مرّة تفنيدها و دحضها و إثبات وجهة رأيه و تأكيدها بمختلف الحجج مستعينا بمختلف التقنيات.

توفّر النص الجرجاني على كلّ هذه الخصائص، من حوارية، تناغم، البرهنة والاستدلال وكذا نجاعة العرض فجاء بذلك نصًا حجاجيًّا بامتياز لذلك وقع اختيارنا عليه كمدونّة لبحثنا هذا حيث سنحاول البحث عن الطرق التي استخدمها الجرجاني في إقناع متلقيه. و لكي يكون النص الحجاجي مقنعا لابدّ من توفّر بعض الشروط.

3 شـــروط نجـــاح النّـــص الحجـــاجـــي:

ذكر الباحثون جملة من الشروط التي لابدّ من توفّرها في النص الحجاجي ليكون ناجحا، فمنها ما يتعلّق بالمرسِل و منها ما تعلّق بالمرسَل إليه و أخرى تتعلّق بالمقام أو السياق بالإضافة إلى تلك التي تتعلّق بالخطاب.

3 1 الحيـــاد:

يعدّ الحياد شرطا من شروط نجاعة الحجاج و هو «الإيهام بأنّه لا ينحاز إلى رأي بعينه و لا يتعصّب لموقف محدّد و أنّ ما يعرضه في الخطاب هو واقع لا مراء فيه و حقيقة لا سبيل إلى دحضها»[2] يتعلق هذا الشرط بالمرسِل حيث يجب عليه أن لا يظهر تعصّبه لأفكاره بل عليه عرض الأحداث بموضوعية و تجرّد، و عليه أن يظهر وجهة نظره على أنها الوجهة الوحيدة الصحيحة التي لاشكّ حولها فـ«لا ينبغي أن يؤسس المرسل –ناقدا أو مبدعا أو خطيبا– بناءه الحجاجي بطريقة تعسفية تحريضية (manupilation) يساق من خلالها المعنيون "خلسة" إلى فرضيات سطحية أو مسلمات مراوغة، يجدون أنفسهم في النهاية عندما يكتشفون تمويهها وخطلها– ناقمين، لا على الخطاب فحسب، بل على مُلقيه كذلك »[3] على المرسِل إذن أن يبتعد عن المراوغة و المكر و الخداع في بناء حجاجه حتى لا ينقم عليه المتلقون بعد اكتشاف مكره.

يجب على المحاجج أن يتمكّن من إقناع المتلقي و لا يجب عليه بأي شكل من الأشكال إجباره على تبني وجهة نظر ما. و هو ما يؤكده فليب بروتن: «الاستعمال الجيّد للحجاج يتطلب إذا قطيعة مع عالم تقنيات السيطرة (manupilation)»[4] إذن لكي يكون الحجاج جيّدا لابدّ أن

---

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 24.

[2]– المرجع نفسه، ص 36.

[3]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 123.

[4]– Philippe Breton ,L’argumentation dans la communication,P 17.

نبتعد عن تقنيات التحكم و السيطرة. هذا ما لاحظناه عند الجرجاني، فهو يعرض أفكاره بكل موضوعية و يترك كامل الحرية للمتلقي للأخذ بأفكاره أو تركها.

3 2 شـــروط الخطيـــب:

ليكون الخطاب الحجاجي ناجحا نادى الجاحظ بضرورة توفّر بعض الشروط في الخطيب «فالجاحظ دائم الإلحاح على الشروط اللازم توفرها في المتكلم من حيث الخبرة و الحذق للآلة البلاغية و النصوص الاستشهادية الضرورية لكل حجاج، هذا علاوة على تغير القالب اللّغوي الكفيل بإنجاح الفحوى و المقاصد و دفع السامع إلى تحقيق المضامين النصية. و من العناصر الحجاجية التي اهتم بها الجاحظ نذكر «مقتضيات المقام و ما تشمله من أحوال الخطيب و كفاءته اللّغوية و هيئته و صفاته الخلقية، و ما يحسن عليه و ما يقبح »[1]، وضع الجاحظ – كما سبق وذكرنا في الفصل السابق– جملة من الشروط الواجب توفرّها في الخطيب المتعلّقة بهيئته و كذا المتعلقة بآلته –أي لغته– و هذه الشروط ضرورية جدًا كي يتمكن الخطيب من إقناع متلقيه وجعله يتبنى وجهة نظره. وقد توفرّت هذه الشروط في الجرجاني و خاصة فيما يتعلّق بآلته، فهو يملك لغة فصيحة، بليغة واضحة و مباشرة حيث يتحدث عن أهدافه بطريقة مباشرة و لا يعتمد على المراوغة و تتجلى كفاءة المحاجج في «...منهجه في بناء خططه القولية، و رؤيته التي يؤسس عليها اختياراته في تقديم الفرضيات و المقدمات التي من حقها التقديم في مقام خاص و مع جمهور بعينه (...) لذا فإن المحاجج إذا أحس بأن مخاطبيه يسلمون سلفا بفكرة أو بعنصر يدعم تحقيق ما يرمي إليه، فإنّ عليه إبراز هذا العنصر و تدعيمه بكل ما يعضده ويجعله حَاضرًا في المقدمة و يزيد من أهميته. و مما يضمن نجاح الحجاج، الوعي المبكر لدى المحاجج بالتصورات و الأفكار الحاصلة لدى متلقيه، و التي عليها يمكن أن تتأسس ردود فعلهم السلبية المعارضة لمقدماته هو شخصيا »[2] المحاجج الناجح إذن هو الذي يجيد بناء خطبه و يختار الإستراتيجية المناسبة و الفعّالة لتحقيق الأهداف المرجوة، يتاح له هذا الأمر إذا كان على معرفة بجمهوره و إذا استطاع أن يتنبأ بأفكارهم و ردّات فعلهم.

يتوجب على المتكلم أن يكون على دراية بمستويات العقول التي يخاطبها و طاقاتها، كما عليه أن يولي أهمية قصوى لكلّ مكونات السياق و بالخصوص المتلقي «فأهم شروط الحجاج (...) التسليم بوجهة نظر الآخر و حضوره – بآفاق انتظاره– في الخطط الحجاجية ».[3] على

---

(1)– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 214.

(2)– المرجع نفسه، ص 114.

(3)– المرجع نفسه، ص 109.

المحاجج أن يأخذ بعين الاعتبار آراء متلقيه و وجهة نظره و أفق انتظاره أثناء بناءه خططه القولية.

3 3 وضعية الباث و المتلقي:

يتضّح من هذا أنّ الخطاب الحجاجي يرتبط بوضعية الباث و المتلقي باعتبار «إنّ الخطاب الحجاجي و هو يعرض فكرة ما و يحتّج لها احتجاجا قد يكون صارما دقيقا وقد يفتقر أحيانا إلى الصرّامة و الدقة المنشودتين إنّما يهدف كما رأينا إلى إقناع حقيقي، و نجاعة هذا الخطاب إنّما تكمن في مدى قدرته على اقتحام عالم المتلقي و تغييره، إذ أنّ الحديث عن وضعية ما خارج الخطاب يمكن أن ينتهي بتغييرها لا على مستوى الفكرة فحسب بل على مستوى الوقائع و هذا يعني حقيقة لا سبيل إلى دحضها هي ارتباط الخطاب الحجاجي بوضعية كلّ من الباث و المتلقي »[1] يتراوح الخطاب الحجاجي بين الصرامة و الدقة و عدمهما لكنّه يهدف بالأساس إلى إقناع المتلقي و التأثير عليه ودفعـــه إلى القيـــام بفعل ما ، حتى و إن لم يقتنع 100 %. فنجاح الحجاج يقاس بمدى قدرة المحاجج على التوغل في عالم المتلقي و إحداث تغييرات على مستواه.

3 4 حسن اختيـــار الألفـــاظ:

من شروط نجاح الحجاج كذلك حسن اختيار الألفاظ إذ «...على الخطيب –المرسل بصفة عامة– في هذا المقام، إجادة اختيار الألفاظ المناسبة و العدول عن الأخرى المنفّرة الصادمة للوعي أو للشعور أو للحسّ المشترك، فانسجام المقال مع المقام شرط حجاجي جوهري»[2] لابدّ أن تكون الألفاظ التي يستخدمها المحاجج في خطابه مناسبة لسياق الخطاب فعليه أن يبتعد عن تلك الألفاظ التي يمجّها الذوق العام أو تلك التي تسيء إلى الآداب العامة، كما أنه لابدّ أن يتطابق موضوع الخطاب و أسلوبه حيث أن أنجع الكلام في الحجاج ما جاء على قدر المقام فـــ «الوعي بالواقع و شروطه، و اختيار الأساليب التعبيرية الملائمة لكلّ مجتمع و لكل سياق هما من بين أهم أهداف التيار الحجاجي المعاصر »[3] على المحاجج اختيار الحجج المناسبة لمجتمعه و التي يمكنه من خلالها اقناع جمهوره ولابدّ أن يجتب هذه الحجج وفقا للسياق الذي يحدث فيه الحجاج.

---

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 31–32.

[2]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 11.

[3]– المرجع نفسه، ص 232.

3 5 القدرة على شدّ انتباه السامعين:

يتوجب على المحاجج أيضا أن يشدّ انتباه سامعيه فلا يشتّت انتباههم فـــ «من يرمي بخطابه إلى التأثير ينبغي عليه أن يحرص على عدم إضاعة وقته و على عدم تشتيت انتباه سامعيه و من أجل ذلك وجب عليه أن يولي كلّ قسم من أقسام كلامه الأهمية التي يريدها له في أذهان سامعيه فلا يعرض من المقدمات ما هو معلوم لدى السامعين فقد يبدو ذلك ثقيلا على أنفسهم»[1] إذا أراد المرسِل إقناع متلقٍ ما فلا يجب عليه أن لا يضيّع وقته في أمور تنفرّ السامعين و لا تجذب انتباههم، و عليه أن يولي كل قسم من كلامه الأهمية التي يستحقها و التي يريد إبلاغها للمتلقي و عليه أن ينسّق بين مختلف أجزاء كلامه، إذ لابدّ من «"التناغم[*]" البيّن و"الانسجام" الجليّ بين مفاصل الخطاب و مختلف مكوّناته فلا مكان للتنّاقض في الخطاب الحجاجي الناجح»[2] لا يمكن في الخطاب الحجاجي أن نجد تناقضا بين المقدمات و النتائج و لا أن تخالف أوائله أواخره ، فالتناغم و الانسجام شرطان ضروريان لنجاح الخطاب الحجاجي.

حسب نظـــرية المعرفـــة فإن:«الشـــرط الأساســـي لتحقق الحجـــاج هو أن يعبّر عنها بملفوظات مترابطة (une séquence coordonnée)«حجة+ نتيجة (argument+conclusion)، والنتيجة ليست إعادة صياغة للحجة، فكلا الملفوظين متمايزان و متطوران (évaluables) بشكل منفصل....»[3] ، هكذا يشترط رواد نظرية المعرفة (théorie de la connaissance) توفّر الحجة والنتيجة ليكتسب ملفوظ ما الخاصية الحجاجية، مشيرين إلى استقلال الحجة عن النتيجة فكلّ واحدة منهما قابلة للتطوّر بعيدا عن الأخرى.

أمـــا بالنسبـــة للنظـــريـــات الحـــواريـــة (les théories dialogiques) فـــإن «المشغّـــل (le déclencheur) للوظيفة الحجاجية هو الشك الملقى على وجهة نظر ما، مجبرا المتكلم على تبرير (justifier) وجهة نظره هذه »[4] يكتسب خطابا ما الخاصية الحجاجية إذا شكّك في وجهة نظر المرسِل، و ذلك الشك سيؤدي بالضرورة إلى ردّ فعل المرسِل من خلال دفاعه عن وجهة نظره، وبذلك يصبح الخطاب حجاجيا.

في سياق الحديث عن نجاعة الخطاب الحجاجي، تذكر سامية الدريدي مسألة أخرى تتعلّق بمسألة: حفظ ماء الوجه التي جاء بها عالم الاجتماع الأمريكي غوفمان تقول:«و الواقع أنّ

---

(1)– عبد إله صولة، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 317.

(*)– تـــذكـــر ساميـــة الـــدريـــدي مقومات التناغم و هي: القبول (la recevabilité)، مشـــابهـــة الحقيقـــة (la vraisemblance) و الإقرار (acceptabilité)، ينظر الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 37.

(2)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 36.

(3)– P. Charaudeau et D. Maingueneau, dictionnaire d'analyse du discour, p 70.

(4)– Ibid. P 70-71.

الخوض في شأن نجاعة الخطاب الحجاجي يدعونا إلى الوقوف عند قضية أصبحت شائعة تعود بالأساس إلى أعمال عالم الاجتماع الأمريكي غوفمان (Goffman) و المتعلّقة بما نعبّر عنه بقولنا (حفظ ماء الوجه) (sauver la face) فمن أبرز سمات الحياة الاجتماعية كما أكدّ غوفمان سعي كلّ امرئ إلى الذود عن كرامته و الدّفاع عن "مناطقه" و حفظ ماء وجهه لذا تراه يحرص كل الحرص على تلميع صورته لدى الآخرين لكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك ما لم يراع الآخر ويجامله و يتورّع عن التّدخل في مناطقه »[1]، يعدّ حفظ ماء الوجه شرطا من شروط نجاعة الخطاب، فالخطاب ينجح إذا تمكّن المرسِل من حفظ ماء وجهه و الذي لا يتحقق إلاّ بمراعاة الطرف الآخر.

يعدّ مفهوم الوجه من المفاهيم الأساسية في دراسة التفاعل الكلامي «فهذا المفهوم (للوجه) أدخله غوفمان (1974)، الذي يقابل الوجه و المنطقة (face/ territoire)، ليبيّن تصرّف المشاركين في التفاعل الكلامي المضطرين إلى «إنقاذ» صورتهم و صورة المشاركين معهم في الوقت ذاته »[2] هذا باختصار مفهوم حفظ ماء الوجه، ثم بعد ذلك ميّز "براون" و"ليفنسون" بين وجهين موجودين في الشخص هما: الوجه الإيجابي و السلبي.

3 6 التمكن من إحداث تغيير في أفكار و سلوك المتلقي:

نقول أنّ الخطاب الحجاجي قد نجح إذا أحدث المرسِل تغييرا في أفكار و سلوك المتلقي ذلك أنّ «الخطاب الحجاجي (...) خطاب "غائي" "موجّه": غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار و ما يعرضه من مواقف أو إغرائه بهذه الأفكار و تلك المواقف ليحدث في نهاية المطاف أثرا واضحا في المتلقي لا من حيث أفكاره فحسب بل من حيث مواقفه و ما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس، و تحقيق هذا التغيير أو التبدّل في أفكار المتلقي و مواقفه يعدّ علامة نجاح الخطاب الإقناعي و"وجاهة" الحجاج المعتمد، أو هو النتيجة "المرتفعة" لخطاب ناجح و حجاج وجيه ناجع»[3] إذن الخطاب الحجاجي له هدف معيّن و موجّه إلى جمهور معيّن (مهما تغيّر شكل هذا الجمهور) فهو موجّه لإقناع المتلقي بالأفكار التي يحملها هذا الخطاب والمواقف التي يعرضها لتحقيق هدفه و هو إحداث تغير في أفكار المتلقي و مواقفه، و إذا تحقق هذا الهدف كان الخطاب ناجحا و الحجاج ناجعا.

---

(1)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 37–38.

(2)– Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, Edition du Seuil, Paris 1996, P 40.

(3)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 35.

يجب علينا أن ننبّه إلى مسألة غاية في الأهمية، إن الخطاب الحجاجي لا يتوصّل بالضرورة إلى النتيجة المراد تحقيقها فــ «...إمكان سقوط الخطاب الحجاجي في المغالطة يظّل واردا في جميع الأحوال باعتباره قد يستغّل عناصر البرهنة المنطقية استغلالا ذاتيا يرمي إلى الإيهام و المغالطة، كأن يستنتج من مقدّمة أكثر مما تحتمل... »[1]، من أدوات الإقناع التي يعتمدها المرسل لإقناع متلقيه البرهنة بمختلف عناصرها (مقدمات نتائج...)، غير أنّ المرسل قد يستخدم هذه العناصر استخداما ذاتيا مما يؤدي إلى تعدّد دلالات المقدمة التي استخدمها، أي تصبح تحمل أكثر من معنى، مما قد يؤدي إلى المغالطة و الإيهام.

من الملاحظة السابقة لابدّ من تحديد مفهوم نجاعة الخطاب الحجاجي فهي «لا تعني البتّة صدقه بل تعني توظيفا ذكيّا لشروط النجاعة التي رأينا أهمّها [الحياد و الانسجام و التناغم] مع وعي تام بضرورة الانطلاق دائما من مقدمات تكون عادة محلّ اتّفاق أو هي على الأقلّ كذلك بالنسبة إلى المتلّقي لأنه يكفي أن يرفض إحداها لينهار البناء الحجاجي كلّه »[2] نجاعة الخطاب الحجاجي تتحقق بتوفّر شروط النجاعة و توظيفها بطريقة ذكيّة، بالإضافة إلى ضرورة اختيار المقدّمات المتفق عليها بين المتخاطبين على الأقل كي لا يسقط الخطاب في المغالطة – كما ذكرنا سابقا– و كي لا ينهار البناء الحجاجي كذلك.

تذكر الباحثة أيضًا أن «النجاعة تعني بالأساس (...) النجاعة في النّفاذ إلى عالم المتلقّي وإقناعه بفكره ما أو حمله على الإذعان لموقف معيّن و الصّدق في الخطاب يؤدي دائما إلى الإقناع أو الحمل على الإذعان لموقف معيّن بل الأهّم من ذلك كلّه أن صدق الخطاب الحجاجّي يعدّ في ذاته إشكالية لم يحسم القول فيها».[3]

تعدّ مسألة الصدق في الخطاب الحجاجي من المسائل التي لم يتوصّل إلى حلّها بعد، لكنّ نجاعة هذا الخطاب تتمثّل في نجاحه في دخول عالم المتلقي و إحداث تغيير في أفكاره ومواقفه وإقناعه بالأفكار التي يريدها المرسِل، و هي أسما ما يريد بلوغه المرسل.

ترك الجرجاني آثارًا واضحة في جمهوره، فالكتب التي أّلفت بعده أعادت صياغة ما جاء به في الدلائل –هذا لا يعني أنّنا ننكر جهد العلماء الذين جاءو ا بعده إلاّ أننا نشير إلى أنّهم أخذوا عنه الكثير– و خير مثال على ذلك الزمخشري الذي كان «قارئا ممتازا لما جاء به الجرجاني، استطاع أن يتمم الجهود البلاغية و يكملها إلى درجة جعلت البلاغة العربية لا تتجاوز الحدّ الذي استقرت عليه بعد هذين العالمين الجليلين »[4] أشار الباحث هنا إلى أن البلاغة

---

[1]–سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 40.

[2]– المرجع نفسه، ص 40.

[3]– المرجع نفسه، ص 39.

[4]– محمد تحريشي، النقد و الإعجاز، ص 197.

اكتملت مع الجرجاني و الزمخشري من بعده، حيث تمكّن من قراءة الجرجاني قراءة ممتازة حاول من خلالها توسيع آفاق تلك البلاغة ومجالاتها.

كان الزمخشري «صاحب نظرة خاصة لا تجتر ما فات بل تسهم في ترقية قراءة النص القرآني؛ لأنّه امتلك الأدوات الإجرائية لمثل هذه القراءة، كما قد اكتمل لديه مفهوم جمالية النص التي تأخذ من المفاهيم الأساسية لعلمي المعاني و البيان، حيث أصبحت المفاهيم المنضوية تحت هذين العلمين مفاتيح كبرى لفكّ استغلاق النص و الكشف عن جماليته التي تقوم على أساس الترابط بين جزئياته المكون له »[1] تمكّن الزمخشري من استيعاب أفكار الجرجاني، فهو لم يعد صياغتها كما جاءت، بل طوّرها اعتمادًا على أدوات إجرائية مكّنته من تأسيس خطاب نقدي متميّز توصّل من خلاله إلى الوقوف على جماليات النص القرآني.

من هنا نلحظ أنّ الجرجاني تمكّن من التأثير في المتلقي و ما الزمخشري إلاّ عيّنة من الذين تأثروا بالجرجاني –و هذا يدل أنه توفّرت في نصه شروط نجاعة الخطاب الحجاجي– يمتاز الجرجاني بتوظيفه الجيّد للّغة، كما أنّ الشواهد التي إستعان بها جاءت مناسبة جدّا لسياق حديثه فكانت جزءًا لا يتجزأ من خطابه، كما ساهم التناغم بين أجزاء خطابه في منح ذلك الخطاب سحرًا خاصًا فـــ«قد يجد المرء صعوبة في الوقوف عند الجرجاني، فلا يعرف من أين يبدأ و إلى أين ينتهي، ذلك أنه يسحر المتتبع لنظريته إلى درجة أنه يبقى أسير هذه النظرية و لا يستطيع الفكاك منها»[2] يدلّ هذا الكلام على تمكّن الجرجاني من أدواته الإقناعية إلى درجة أنه يستحوذ على المتلقي و يترك فيه الأثر الواضح الذي لا يمكن إخفاءه، فبعد الجرجاني لم يخض أحد في مسألة الإعجاز إلاّ و أرجعها إلى النظم.

إنّ ما جعل الجرجاني يؤثّر في المتلقي هو استحضاره للقارئ بمختلف الوسائل فـــ«من خصوصية القراءة عند الجرجاني هو ذلك السعي الحثيث لدفع المتلقي إلى المشاركة في هذا الفعل عبر استحضاره بمجموعة من التعبيرات المتنوعة من مثل: و علم، و كاف المخاطب، وضمير الغائب الدال على الرأي الآخر موضوع المناقشة، و تكاد هذه الإستراتيجية تسيطر على قراءة الجرجاني كلها، و تدل على ثقة في النفس و تأكد من صحة المسعى و التوجه، و صواب الرؤية و إدراك لآفاق النص و لجمالياته »[3] جعل الجرجاني المتلقي حاضرًا في خطابه من خلال استحضاره عن طريق أفعال الأمر، أدوات الخطاب بالإضافة إلى ضمير الغائب.

---

[1]–محمد تحريشي، النقد و الإعجاز، ص 193.

[2]– المرجع نفسه، ص 190.

[3]– المرجع نفسه، ص 226.

نجد في نص الجرجاني ثلاثة ذوات: أنا الجرجاني و المخاطب، و الغائب صاحب الرأي موضوع النقاش، و أنا صاحبة القراءة الجديدة، و عبّر عن المخاطِب بضمير المتكلّم والغائب.

فالجرجاني يذكر آراء الآخر –الغائب– و هو لا يلغي أفكاره بل يفندها و يبيّن أنّ النص لا يحتمل تلك القراءة و يعرض في المقابل أطروحته –ألا و هي النظم– و يدّعمها بكلّ الأدّلة الممكنة، ليتوصّل في النهاية إلى تحقيق هدفه المرجو: التأثير في المتلقي و التمكّن من إقناعه.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: البنية الحجاجية في دلائل الإعجاز

1- تقنيات الحجاج.

1-1- الأدوات اللّغوية.

1-1-1- ألفاظ التعليل.

1-1-2- الوصف.

1-1-3- صيغ تعبيرية أخرى.

1-2- الأدوات البلاغية.

1-2-1- الصور البلاغية.

1-2-2- تقسيم الكل إلى أجزائه.

1-3- الأدوات شبه المنطقية.

1-4- المقدمات.

1-4-1- الوقائع.

1-4-2- الحقائق.

1-4-3- الافتراضات.

1-4-4- القيم.

1-4-5- هرمية القيم.

1-4-6- المعاني.

1-5- التكرار.

1-6- طريقة العرض.

1-7- الحضور.

1-8- الضمنيات.

2- أنواع الحجج.

أولا: الطرائق الاتصالية.

1 - الحجج شبه المنطقية.

1-1 -الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية.

1-1-1 - التناقض و عدم الاتفاق.

1 - 1 - 2 - التماثل و الحدّ في الحجاج.

1 - 1 - 3 - الحجج القائمة على العلاقة التبادلية و على قاعدة العدل.

1 - 1 - 4 - حجـــج التعديـــة.

1 - 2 -الحجـــج شبه المنطقيـــة التي تعتمـــد العلاقات الرياضيـــة.

1 - 2 - 1 - إدمـــاج الجـــزء في الكـــل.

1 - 2 - 2 - تقسيـــم الكـــل إلى أجـــزاء.

2 - الحجـــج المؤسّســـة على بنيـــة الواقـــع.

أ - وجـــوه الاتصـــال التّتابعـــي.

❋ الوصـــل السببـــي.

❋ حجّـــة التبذيـــــر.

❋ حجّـــة الاتجـــــاه.

ب - وجـــوه الاتصـــال التّواجـــدي.

❋ الشخص و أعماله.

❋ حجّـــة السلطـــــة.

❋ الاتصال الرّمزي.

3 - الحجـــج المؤسِّســـة لبنيـــة الـــواقـــع.

3 - 1 -تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة.

3 - 2 -الاستـــدلال بواسطـــة التمثيـــل.

4 - الحجـــج التـــي تستدعـــي القيـــم.

5 - الحجـــج التـــي تستدعي المشترك.

ثـــانيـــا: الطرائـــق الانفصاليـــة.

3 - العـــــلاقـــــات الحجـــاجيـــة.

3 - 1 -علاقـــة التتابـــع.

3 - 2 -العلاقـــة السببيّـــة.

3 - 3 -علاقـــة الاقتضـــاء.

3 - 4 -علاقـــة الاستنســـاخ.

3 - 5 -علاقـــة عدم الاتفـــاق أو التنـــاقض.

عرفنا فيما سبق أنّ الإستراتيجية الحجاجية هي فنّ توزيع مختلف الوسائل الحجاجية وتوظيفها لتحقيق الإقناع عبر عدّة مراحل، و تستخدم هذه الإستراتيجية في عدّة مجالات و من طرف مختلف الأشخاص و برهنّا في فصل آخر أنّ النص الجرجاني هو نص حجاجي توفّرت فيه جلّ شروط نجاعة الخطاب الحجاجي، فإنّنا سنبحث في هذا الفصل عن البنية الحجاجية التي استعملها الجرجاني.

لتوضيح مفهوم البنية نستعين بما تذكره سامية الدريدي: "إنّ الخوض في مسألة بنية الحجاج في أي خطاب حجاجي يعني بالضرورة النّظر في مختلف الحجج التي وظّفها المحتجّ لغاية الإقناع أو الحمل على الإذعان، ممّا يقتضي من الدّرس حصرًا للحجج في مرحلة أولى ثمّ تصنيفها و إبراز الفوارق القائمة بينها والبحث خاصة في دواعي اختيار صنف من الحجج دون صنف آخر أو التركيز على نوع منها دون سائر الأنواع" [1]، إذن على الدارس للبنية الحجاجية إحصاء الحجج التي وظّفها المحاجج ثم ترتيبها و عليه أيضًا أن ينظر إلى طريقة عرض المعطيات أي بشكل الخطاب الحجاجي كاملاً.

ينوّه عدّة باحثين إلى التداخل الموجود بين أنواع الحجج ففليب بروتن يتساءل: «هل يجب تمييز وتسمية كل حجّة من الحجج؟

مهما بلغ جهد التصنيف في هذا الميدان، فإنّنا نلاحظ أنّ الالتقاء بـــ «حجج صافية» (Purs Arguments) أمر نادر الحدوث. فالحجاج بالمثال يستدعي دائمًا نوعًا من المقارنة؛ إنّه في ذاته نداء إلى سلطة الحدث المثالي... »[2]، تصنيف الحجج ليس بالأمر الهيّن أو البسيط لأنّ هذه الحجج متداخلة فيما بينها، و الحجّة الواحدة يمكن أن تدرج ضمن أكثر من صنف «فبعض الحجج تقع في الحدود التي تفصل بين نوعين من الحجج »[3]، كما أنّ الحجج تتغير وظيفتها حسب الزمان و المكان.

لا يمكن اعتبار الحجاج صحيحًا مائة بالمائة، فكل حجّة قد تكون صحيحة أم خاطئة فهي ليست قطعيّة، إذ يمكن لطرف آخر أن يأتي بحجّة تثبت صحّة ما فنّدته الأولى و رفضته. كما أنّه لا يمكن اعتبار الحجاج صادقًا ونزيهًا على الإطلاق فهو نسبيٌّ- كما سبق الذكر- والسبب في ذلك ارتباطه بالقصد و النّية.

---

[1]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 181.

[2]- Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P 42.

[3]- Ibid, P 50.

1 تقنيـــات الحجـــاج:

يسعى المرسِل في حجاجه إلى إقناع المتلقي بكلّ ما أوتي من قوة، لذلك فإنّه يستخدم كلّ الوسائل والآليات المتاحة له لتحقيق هذا الهدف، يعتمد في ذلك على علامات لغوية و غير لغوية (كالتنغيم، الإشارات الجسدية، هيئة معيّنة)، كما أنّ سلوك المرسل آلية من آليات إقناع المتلقي، «و هذه الآليات خاصة بمجال الحجاج وحده إذ يعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حجّته و طريقة بنائها، بما يتناسب مع السياق الذي يحفّ بخطابه »[1] إذن تقنيات الحجاج خاصة، لأنّ المرسل يتحكّم بحججه فيرتبها كيف يشاء و بما يخوّل له سياق خطابه.

يقسّم الباحثون تقنيات الحجاج إلى ثلاثة أقسام:

1 –الأدوات اللغوية الصرفة، مثل: ألفاظ التعليل بما فيها الوصل السببي، والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللّغوية، و الحجاج بالتبادل، و الوصف و تحصيل حاصل.

2 –الآليات البلاغية، مثل تقسيم الكلّ إلى أجزائه، و الاستعارة، البديع، التمثيل.

3 –الآليات شبه المنطقية، و يجسدها السلّم الحجاجي بأدواته و آلياته اللغوية، ويندرج ضمنه كثير منها، مثل الروابط الحجاجية: (لكن، حتّى، فضلاً عن، ليس كذا فحسب، أدوات التوكيد)، ودرجات التوكيد، و الإحصاءات، و بعض الآليات التي منها الصيغ الصرفية، مثل التعدية بأفعال التفضيل و القياس و صيغ المبالغة.[2]

1-1 الأدوات اللّغويـــة:

تتنوع الأدوات اللّغوية التي تؤدي وظيفة حجاجية، فمنها ألفاظ التعليل، الصفات و النعوت، أدوات الربط و العطف...و غيرها.

1-1-1 ألفـــاظ التعليـــل:

من ألفاظ التعليل التي استخدمها الجرجاني نجد: "و ذاك أنا"، "و هو أن"، "ذاك لأنّه"، "و دليلٌ آخر"، "فإن السبب في أن..." هذه بعض ألفاظ التعليل التي استخدمها الجرجاني قصد تبرير آرائه وتعليلها، و يجيب بواسطتها عن أسئلة المتلقين و تساؤلاتهم.

تعطي ألفاظ التعليل الخطاب صبغة حجاجية، كون المخاطَب في حجاجه يذكر آراءً لا بدّ له من تعليلها حتى يتمكن من إقناع المتلقين بها، كما عليه تحليل آرائه عندما يحاول دحض أفكار معارضيه.

---

(1)– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 477.

(2)– المرجع نفسه، ص 476–477.

1 1 2 - الوصـــــف:

تنهض الصفات بدور حجاجي، فالصفة تعبّر عن وجهة نظر المخاطَب فـــ "من مظاهر اختيار المعطيات و جعلها ملائمة للحجاج اختيار النّعوت أو الصّفات (Le choix des qualifications)، فالصفات تنهض بدور حجاجي يتمثّل في كون الصّفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا و موقفنا من الموضوع" [(1)]، فالمقصد الحجاجي من إطلاق الصّفة تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن يحكم به عليه، فلا تأتي بالصفة لمجرّد الكشف عن موقف المرسِل من الموصوف و إنّما يأتي بالصفات ليُبَيّن المرسِل موقفه الذي يحكم به على ذلك الموصوف.

لا بدّ أن نشير إلى أنّه « يشمل الوصف عددا من الأدوات اللّغوية منها: الصفة و اسم الفاعل واسم المفعول (...) يعتبر اسم الفاعل من نماذج الوصف التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفها حجّة ليسوّغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، لتنبني عليه النتيجة التي يرومها (...) ويصنّف اسم المفعول على أنّه من الأوصاف الحجاجية المستعملة »[(2)]، يملك المرسِل الخيار في استعمال الوصف الذي يريد.

يلعب الوصف دورًا في التأكيد و هو ما يحقق الإقناع، و قد تنبه النحاة القدامى لهذه المسألة فابن يعيش يرى أنّه « "قد يجيء النعت لمجرد الثناء و المدح" لا يراد به إزالة اشتراك و لا تخصيص نكرة بل لمجرد الثناء و المدح أو ضدهما من ذم أو تحقير و تعريف المخاطب من أمر الموصوف ما لم يكن يعرفه (...)"و قد تجيء الصفة للتأكيد " نحو قولهم «أمس الدابر» و أمس لا يكون إلاّ دابرًا والميت العابر والميت لا يكون إلاّ عابرًا و نحو قوله تعالى (إنّما الله إله واحد) (و إذا نفخ في الصور نفخة واحدة) و معنى التأكيد هنا أنّ مدلول الصفة استفيد مما في الموصوف فصار ذكره في الصفة كالتكرار إذ ليس فيه زيادة معنى بخلاف قولك قولك رجل ظريف ألا ترى أنّ الظرف لم يفهم من قولك رجل فافهم »[(3)]، إذ جاءت الصفة للتأكيد فإنها تنهض بوظيفة حجاجية، فهي تساهم في إقناع المتلقي برأي المرسل.

يقول الجرجاني في وصفه لعلم البيان: « ثم إنّك لا ترى علمًا هو أرسخ أصلاً، و أسبقَ فرعًا، وأحلى جنًى، و أعذبَ وِرْدًا، و أكرمَ نتاجًا، و أنوَرَ سراجًا، من علم البيان »[(4)]، و من الوصف الذي ذكره عن النظم الذي به يعرف سرّ إعجاز القرآن. يقول: «...ممّن كره أن يُعرَف

---

(1)- عبد إله صولة، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 316.

(2)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراجيات الخطاب، ص 487-489.

(3)- موقف الدين بن يعيش، شرح المفصل، المجلد الأول، الجزء3، ب ط، عالم الكتب، بيروت، ب ت، ص 47-48.

(4)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 5.

حجّة الله تعالى من الجهة التي إذا عُرِفت منها كانت أنور و أبهر، و أقوى و أقهر... »[1]، ونلاحظ أنّه استعمل هنا اسم التفضيل في الوصف.

1 1 3 صيــغ تعبيريــة أخــرى:

تحتوي اللغة على صيغ تعبيرية أخرى لها دور حجاجي فقد «...حاول المؤلفان[*] ضبط الصيغ التعبيرية (Modalité D’expression) أو الجهات التعبيرية التي لها دور حجاجي في عرض المعطيات من ذلك النفي (La Négation) فالنفي إنّما هو ردّ على إثبات فعلي أو محتمل حصوله من قبل الغير »[2]، يلعب النفي دورا حجاجيا في الخطاب، و مثال ذلك ما قاله الجرجاني في نفيه آراء من زهدوا في رواية الشعر و حفظه و ذمّوا الاشتغال بعلمه وتتبُّعه« و أيٌّ كان من هذه رأيًا له، فهو في ذلك على خطأ ظاهر و غلط فاحش، و على خلاف ما يُوجبه القياس و النّظر، و بالضِّد مما جاء به الأثر، و صحَّ به الخَبَرُ »[3]، ينفي الجرجاني صحّة هذه الآراء؛ أي الذين زهدوا فيه للسخف و الهزل الموجود فيه، و الذين ذموه بسبب ما تعلّق بأحوال الشعراء و كونهم ذموّا في النص المقدس.

من الصيغ التعبيرية التي تلعب دورًا حجاجيًا في الخطاب « طرائق الرّبط بين القضايا بواسطة أدوات الاستئناف فهي تبني النتيجة على السبب أو تحدث هرمية بشأن القيم (مثل الواو، أو، لكم إلخ) ومن ذلك أيضًا عبارات من قبيل رغم أنّ و إن كذا، فهي من التقنيات التي تتيح للخطيب سلاسة انقياد السامعين إلى حيث يريد أن يقودهم»[4]، و هذه الروابط متواجدة بوفرة في نص الدلائل، بالإضافة إلى صيغ تعبيرية أخرى.

تلعب هذه الصيغ التعبيرية دورًا مزدوجًا، كما يذهب دومنيك مانغونو: «هذه الروابط (Connecteurs)، كما يشير إلى ذلك اسمها تملك وظيفة مزدوجة:

1 - تربط بين وحدتين دلاليتين.
2 - تمنح الوحدات التي يربط بينها دورًا حجاجيًا»[5]، تعمل هذه الوحدات التعبيرية على الربط بين أجزاء الخطاب إضافة إلى منحه وظيفة حجاجية.

---

[1]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 320.

[*]- المقصود بالمؤلفين: برليمان و تيتيكاه.

[2]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 320.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 11.

[4]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته ، ص 321.

[5]- Dominique Maingumeau, Pragmatique pour le Discours littéraire, éditeur DUNOD, france 1997, P 54.

1 2 1- الأدوات البلاغية:

1 2 1 1- الصور البلاغية:

يلجأ المخاطب أثناء محاولته إقناع جمهوره إلى استعمال الصور البلاغية (استعارة، كناية، تمثيل...) كونها تؤدي دورًا فعالاً في تحقيق الاقتناع فـ « من الأشكال أو الصيغ اللغوية ذات المدى الحجاجي الوجوه أو الصور البلاغية (Figures) التي كثيرًا ما نُظر إليها نظرة أدبية حصرتها في وظيفة التحسين والتزويق...».[1]

كثيرًا ما حصرت الصور البلاغية في دور المكملات في الخطاب و أنّ دورها لا يتجاوز تجميل الخطابات، لكن هذه النظرة بدأت تتغير خاصة مع الباحثين الحجاجيين الذين اكتشفوا قدرة هذه الصور على الإقناع و التأثير.

وضع الجرجاني كتابه الدلائل للحديث عن هذه الصور البلاغية، و فضلها عن الحقيقة والإفصاح، يقول: « قد أجمع الجميع على أنّ "الكناية" أبلغُ من الإفصاح، و التعريضُ أوقع من التصريح، و أنّ للاستعارة مزيّة و فضلاً، و أنّ المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة »[2]، يفضّل الجرجاني دائمًا التلميح عن التصريح و ذلك للانطباع الجيد و المميّز الذي يتركه لدى المتلقي، والدليل على ذلك استخدامه الصور البلاغية في حديثه عن علم البيان حيث يقول: « ثم إنّك لا ترى علمًا هو أرسخ أصلاً، و أسبق فرعًا، و أحلى جنىً، و أعذب وِرْدًا، و أكرمَ نِتَجًا، و أنورَ سِراجًا من علم البيان، الذي لولاه لم ترَ لسانا يَحُوك الوشْيَ، و يصُوغ الحلْيَ، و يلفظُ الدُّرّ، ويَنْفُثُ السّحر، و يَقْرِي الشّهدَ، ويُريك بدائع من الزَّهَر، و يَجْنيكَ الحُلْوَ اليانعَ من الثَّمَر، و الذي لولا تَحَفّيه بالعلوم، و عنايته بها، و تصويرُه إيَّاها، لبقيت كامنة مستورة، و لما استبْنت لها يَدَ الدهر صورة، و لا استمرَّ السِّرارُ بأصلَّتها، و استولى الخفاءُ على جُمْلتها، إلى فوائد لا يدركُها الإحصاء، و محاسن لا يحْصُرها الاستقصاء»[3]، شبه علم البيان بالشجر فجعل له أصلاً و فرعًا و ثمرًا، و شبه الذي يمتلكه بالحائك الذي يبدع في نسيجه، وبالصائغ الذي يصنع أبدع الحليّ والجواهر، و يشبّه أثره بالسحر، و حلاوته بالشهد، وهو الكاشف لمختلف العلوم و المترجم لها.

---

[1]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 323.

[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 70.

[3]- المصدر نفسه، ص 5-6.

1-2-2 تقسيـم الكـل إلـى أجزائـه:

تعدّ هذه الآلية من الآليات الحجاجية في الخطاب و هو أن « يذكر المرسل حجّته كليًّا في أوّل الأمر، ثم يعود إلى تفنيدها و تعداد أجزائها، إن كانت ذات أجزاء، و ذلك ليحافظ على قوّتها الحجاجية، فكلّ جزء منها بمثابة دليل على دعواه »[1]، و نجد هذه الآلية مجسّدة في الدلائل؛ حيث ذكر الجرجاني حجّته في بداية الكتاب، ثم جزّأ هذه الحجّة على طول كتابه، ليكون كلّ جزء حجّة في ذاته، ففصّل الحديث في تعليق الكلم بعضها ببعض، و فصّل الحديث في الصور البلاغية و دورها في النظم وبالتالي الإعجاز.

1-3 الأدوات شبـه المنطقيـة:

اختار المحاجج في هذه المرحلة حججه، و استخدم كلّ التقنيات المتوفّرة له ليتمكّن من إقناع متلقيه، لكن هذا غير كافٍ، إذ لا بد من ترتيب هذه الحجج لأنّ ترتيبها يمنحها قوّة إقناعية، و يتمّ هذا الترتيب وفق ما سماه "أوزولد ديكرو" بالسلم الحجاجي، و الذي يتمتّع بأهمية كبيرة «تكمن أهمّية نظرية السلالم الحجاجية أساسا في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيّز المحتوى الخبري للقول و هذا يعني أنّ القيمة الحجاجية لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب لأنّها لا تخضع لشروط الصدق المنطقي كما ذكرنا، ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغويّة بل مسجّلة فيها يتكهّن بها التنظيم الداخلي للغة»[2]، تقوم نظرية السلالم الحجاجي بإعطاء الخطاب صبغة إقناعية و يخرجه من حيّز الإخبار الذي يحكم عليه بالصدق أو الكذب، غير أنّ الحجج لا تخضع لهذا المقياس بل نحكم عليها بكونها قوية أو ضعيفة، مقنعة أم لا.

و لكلّ نظرية منطلقات تنطلق منها، و نظرية السلالم الحجاجية تنطلق من « إقرار التلازم في عمل المحاجّة بين القول الحجة ق ونتيجته ن ومعنى التلازم هنا هو أنّ الحجّة لا تكون حجّة بالنسبة إلى المتكلّم إلاّ بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أنّ النتيجة قد يصرّح بها و قد تبقى ضمنية »[3]، يعدّ التلازم مبدأً أساسيًا في نظرية السلالم الحجاجية، و هي تعني ذلك الارتباط الوثيق بين الحجّة و النتيجة، فالقول ق لا يعتبر حجّة عند المتلقي إلاّ إذا ارتبط بنتيجة محدّدة. سواء كانت هذه النتيجة صريحة أو ضمنية، فالحجج لا تؤدي وظيفتها إذا لم ترتبط بنتيجة ن.

يذهب طه عبد الرحمن فيما يتعلّق بمفهوم هذه النظرية إلى أنّها « عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية و مُوَفّية بالشرطين التاليين:

---

(1)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 494.

(2)- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللّغة، ص 370.

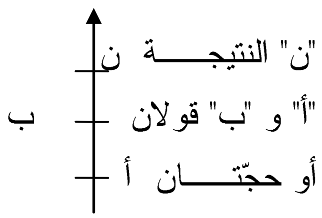
(3)- المرجع نفسه، ص 363.

أ – كل قول يقع في مرتبة ما من السُلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب –كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه».[1]

تتمثل نظرية السلالم الحجاجية في ترتيب مجموعة من الأقوال هي الحجج المختلفة وفق شروط محدّدة، أوّلها أن الحجّة التي تقع في أعلى السلم تتحكم في الحجج التي تقع تحتها وثاني هذه الشروط أنّ الحجّة التي تعلو حجّة أخرى تكون أقوى منها.

تعرّف الباحثة سامية الدريدي السلّم الحجاجي بقولها: «هو علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرمز لها على الشكل التالي:



وفق هذا الرسم نتبيّن قانونين يحكمان السلّم الحجاجي: أحدهما أنّ قول يرد في درجة من درجات السّلّم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه فـــ "ب" أقوى حجاجيًا من "أ" وثانيهما: أنّه إذا كان القول "أ" يؤدي إلى نتيجة "ن" فإنّ ذلك يعني بالضرورة أن "ب" الذي يعلوه في السّلّم الحجاجي يؤدّي إليها و لكن العكس غير صحيح »[2]، تذهب سامية الدريدي المذهب نفسه مع طه عبد الرحمن فهي ترى أنّ الحجّة التي تعلوا الأخرى تكون الأقوى و الحجّة التي تعلو الأخرى تتحكم في الحجج التي تقع تحتها، و ليس العكس.

جاء في كتاب "السلالم الحجاجية": «نفرض أنّ متكلمًا ما وضع ح[*] و حَ في الطبقة الحجاجية (Classe Argumentative) المحدّدة بالنتيجة (ن). نقول أنّه يأخذ حَ كحجّة أعلى من ح (أو أقوى من ح) بالنسبة لـــ ن، إذا كان في نظر المتكلم، قبول الاستنتاج من حّ إلى ن، والعكس غير صحيح، بعبارة أخرى حَ بالنسبة إليّ أقوى من ح في علاقته بـــ ن. و إذا كان من وجهة نظري، الاكتفاء بـــ ح كحجّة لـــ ن ممكنًا، فإنّنا نكتفي أيضًا بـــ حَ. لكن ليس العكس.

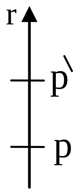
---

[1]– طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، ص 277.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 255.

[*]– ح و حَ نقصد بهما حجّة و حجّة أخرى و هي مقابل لـــ أ و أَ التي استعملها المؤلف.

وفي حالة ما إذا احتوت الطبقة الحجاجية على علاقة تراتبية، فإننا نطلق عليها "سلّم حجاجي". ونمثلها بالمخطط التالي:[1]



يصرّ ديكرو على العلاقة التراتبية بين الحجج و أنّ العليا تستدعي التالية و ليس العكس، وأنّ الحجّة التي تقع في أعلى السلّم هي الحجّة الأقوى.

نجد هذه النظرية مجسّدة في الدلائل عند حديثه عن حجج الذين زهدوا في رواية الشعر وحفظه، يمكن أن نمثل هذه الحجج في المخطط التالي:

ن الزهد في رواية الشعر و حفظه و ذمّ الاشتغال بعلمه و تتبعه.

ح3 من أجل ما يجده فيه من هزل أو سخف و هجاء و سبّ و كذب و باطلٍ.

ح2 لأنّه موزون مقفّى.

ح1 ما يتعلّق بأحوال الشعراء و أنّها غير جميلة في الأكثر، و أنّهم قد ذُمُّوا في التنزيل.

نلاحظ أنّ الحجّة التي تقع في أعلى السلّم هي الأقوى ــ لدى المعارضين لأنّ الجرجاني ردّ على هذه الحجج ــ فأشنع شيء نترك الشعر بسببه هو الكذب و الباطل و السّب، فهذه الصفات يرفضها المجتمع العربي و لا يقبلها، لذلك استخدموا هذه الحجّة ليقنعوا الناس بترك الشعر و الزهد فيه. ثمّ ذكروا حجّة ثانية تتعلق بالشعر كذلك و هي الوزن و القافية، ففي نظرهم قد يُلهي هذا الوزن الناس و يطربهم كونه يتغنى بالشعر. ثمّ بحثوا في أحوال الشعراء فوجدوا بعضها غير جميلة و أ، سيرتهم سيّئة فرفضوا الشعر لذلك.

[1]– Oswald Ducrot, les échelles argumentatives, les éditions de minuit, paris 1980, P 18.

رتّب الجرجاني حجج المعارضين بهذا الترتيب ليكون ردّه عليهم أكثر إقناعًا، فالحجج التي ردّ بها عن الحجّة الأولى كانت الأقوى؛ فقد احتج للرّد عن هذه الحجّة باستشهاد العلماء بالشعر في تفسير القرآن الكريم و شرح غريبه، و لم يمنعهم الأمر حتى من الاستشهاد بأبيات تحوي الكلام القبيح، فهم لم يرووه لذاته و إنّما لشرح غريبه.

احتج كذلك على الحجّة (ح3) بعلم الرسول صلى الله عليه و سلم بالشعر، و إسماعه له وأمره بقوله، فهذه الحجج قوية و مقنعة. خاصة في المجتمع العربي المسلم.

أما فيما يتعلّق بضرورة وجود علاقة بين الحجج في السلم، فهي متوفّرة و تظهر في الرّد الذي قاله الجرجاني.

تميّز الشعر العربي بالوزن و القافية و كانا مفخرة العرب بين الأمم، فجاء القران الكريم فتفوّق على الشعر في هذه الناحية _و في جميع النواحي_ فاحتوى القرآن الكريم على وزن لم تعرفه العرب من قبل فأّعجز لسانها عن مجاراته و الإتيان بمثله، و قد أكّد الله سبحانه وتعالى أنّ هذا القرآن ليس بشعر و أنّ الرسول صلى الله عليه و سلّم لا يقول شعرًا في قوله:﴿وَمَا عَلَمنَاهُ الشِّعرَ و ما ينبغي له ﴾. [يس: 69]، يقول الجرجاني: «و رأينا السبيل في منع النبي صلى الله عليه و سلم الوزن، وأن ينطلق لسانه بالكلام الموزون، غير ما نهيوا إليه، و ذاك أنّه لو كان منع تنزيه و كراهة، لكان ينبغي أن يُكرَه له سماعُ الكلام موزونا، و أن يُنزّه سمعه عنه كما نزّه لسانه، و لكان صلى الله عليه و سلّم لا يأمر به و لا يحثُّ عليه، و كان الشاعر لا يعان على وزن الكلام و صياغته شعرًا و لا يؤيَّد فيه بروح القدس »[1]، هكذا يربط الجرجاني حجّته الأولى على (ح3) بالحجّة الثانية على (ح2).

يردّ الجرجاني على الحجّة الثالثة (ح1) فيقول: « و أما التعلّق بأحوال الشعراء، بأنّه قد ذُمُّوا في كتاب الله تعالى، فما أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجّة في ذمّ الشعر و تهجينه، والمنع من حفظه وروايته، و العلم بما فيه من بلاغة، و ما يختص به من أدب و حكمة، ذاك لأنه يلزم على قولِ هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس و أشعار أهل الجاهلية في تفسير القرآن، و في غريبة الحديث، و كذلك يلزمه أن يدفع سائر ما تقدم ذكره من أمر النبي صلى الله عليه و سلّم بالشّعر، و استحسانه له».[2]

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 26-27.

[2]- المصدر نفسه، ص 27.

نلاحظ بعد هذا أنّ الحجّة الأولى تستلزم الثانية و الثالثة و أنّه تربط بينهم علاقة، ويمكن توضيح حجج الجرجاني في السلّم التالي:

لا يجوز الزهد في رواية الشعر و حفظه و ذمّ الاشتغال بعلمه و تتبّعه.

حٌ — استشهاد العلماء به في شرح غريب القرآن و الحديث و تفسير القرآن، و كذلك علم الرسول صلى الله عليه و سلّم به و استحسانه له و أمره بقوله و سماعه له.

حً — سماع النّبي صلى الله عليه و سلّم للشعر، حثّه عليه و تأييده بروح القدس في قول الشعر.

حَ — أن نعيب العلماء في استشهادهم بالشعر في التفسير و الشرح و إنكار معرفة الرسول صلى الله عليه و سلّم به و استحسانه له و إصغائه إليه.

يتضح من هذا السلم أن الحجة الأقوى تقع في أعلى السلّم و هناك علاقة تراتبية بين هذه الحجج.

1 4 المقـــدمـــات:

تعدّ المقدمات من التقنيات الهامة في الحجاج و المقصود بها: « المقدّمات المتعلّقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق (Proposition de Départ) فهي نقطة انطلاق الاستدلال. من هذه المقدّمات الوقائع والحقائق و الافتراضات و القيم و هرميّة القيم و المعـــانـــي أو المواضع (Les Lieux)»[1] إذن يعتمد المحاجج في حججه على عدّة تقنيات من بينها: الوقائع، الحقائق، الافتراضات، القيم، هرمية القيم و المعاني.

1 4 1 لكــن مـــا هـــي الوقائـــع؟

« الوقائع (les faits) و تمثل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس. إنّ الوقائع لا تكون عرضة للدحض أو الشّك و هي تشكل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج. و تنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة من ناحية و وقائع مفترضة (Faites Supposés) من ناحية أخرى»[2] تمثل هذه الوقائع إذن تلك المعارف المشتركة بين جماعة من الأشخاص و هي معارف متفق عليها لا يقع الشك حولها و يمكن للحجاج أن ينطلق منها و هي نوعان: مشاهدة ومفترضة. و من أمثلة الوقائع في الدلائل مسألة: تقسيم الكلم إلى ثلاث: اسم، فعل و حرف.

---

[1]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 308.

[2]- المرجع نفسه، ص 308.

وكذا طرق التعليق بينها، و كذا ضرورة تكون الكلام من مسند و مسند إليه فالكلام لا يكون من جزء واحد.

يقرّ الجرجاني كذلك باشتراك العرب في العلم أن كل ما له علاقة بصحّة تعلّق الكلم بعضها ببعض. يدخل في أحكام النحو و هو معنى من معانيه. كما نجده يقرّ اتفاق الناس حول مكانة العلم وفضله.

1 4 2 و ما هي الحقائق؟

«هي أنظمة أكثر تعقيدًا من الوقائع و تقوم على الربط بين الوقائع. و مدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية (حقائق دينية مفارقة للتجربة). و قد يعمد الخطيب إلى الربط بين الوقائع و الحقائق من حيث هي موضوعات متفق عليها ليحدث موافقة الجمهور على واقعة معيّنة غير معلومة »[1] الحقائق هي عبارة عن ربط الوقائع فيما بينها، كما نجد عند الجرجاني الذي يقرّ اتفاق الناس حول فضل العلم، ثم يقرّ أنّ علم البيان هو أعلى العلوم مرتبة ثم يذهب إلى أنّ الجهل به يؤدي إلى جهل دقائق و أسرار اللّغة و التي ينتهي إليها إعجاز القرآن الكريم.

1 4 3 و الافتراضات ما هي؟

«و هي شأنها شأن الوقائع و الحقائق تحظى بالموافقة العامة (L'accord Universel) ولكن الإذعان لها و التسليم بها لا يكونان قويين حتى تأتي مسار الحجاج عناصر أخرى تقوّيهما.

و الافتراضات إنّما تحدد بالقياس إلى العادي (Le Normal) أو المحتمل (Le Vraisemblable)»[2] فقد يلجأ المحاجج إلى توظيف الافتراضات و هي معارف تشبه الحقائق والوقائع يشترك جماعة في معرفتها لكن التسليم بها و الخضوع لها ليس قويًا في ذاته، و إنّما يحتاج لأن يدعّم بحجاج.

و مثالها: مكانة الشعر في معرفة إعجاز القرآن الكريم، فقد قدّم الجرجاني سلسلة من الحجج ليثبتَ من خلالها مكانة الشعر و دوره في معرفة إعجاز القرآن الكريم. فالناس على دراية بمكانة الشعر لكن إذعانهم لمسألة الدور الذي يلعبه في كشف سرّ الإعجاز ليس قويًّا بل استدعى حجاجًا طويلاً من قبل الجرجاني ليقنع المتلقين بذلك الرأي. و هو ما لم نجده مثلاً في إثبات مكانة العلم وفضله.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 309.

[2]- عبد إله صوله، الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 309.

1 4 4 -ما هي القيم؟

«إنّ القيم عليها مدار الحجاج بكلّ ضروبه، و هي لئن خلت منها الاستدلالات ذات البعد العلمي والعلوم الشكلية (Sciences Formelles) فإنّها تمثل بالنسبة إلى مجالات القانون و السياسة و الفلسفة غذاءً أساسيًا فهي التي يعوّل عليها جعل السامح يذعن لما يطرح عليه من آراء، و القيم نوعان: (قيم مجرّدة و قيم محسوسة) فالمجرّدة من قبيل العدل و الحقّ والمحسوسة من قبيل الوطن (تونس مثلا) و الكنيسة »[1] تعدّ القيم تقنية من تقنيات الحجاج بلا منازع. إذ عليها يعوّل المحاجج في حجاجه، إذ لها قوّة حجاجية خاصة. و هذه القيم لا نجدها في الميدان العلمي و إنّما مجالها القانون، السياسة والفلسفة.

فمن القيم التي اعتمد عليها الجرجائي اعتباره الصدّ عن الشعر كالصدّ عن معرفة حجّة الله تعالى.

1 4 5 -ما المقصود بهرمية القيم؟ (Les Hiérarchies)

«إن القيم ليست مطلقة و إنّما هي خاضعة لهرمية ما فالجميل درجات و كذلك النافع. و الهرمية بعد ذلك نوعان:

- مجرّدة مثل اعتبار العدل أفضل من النافع.
- مادية محسوسة: كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان، و الإله أعلى درجة من الإنسان.

إنّ هرمية القيم في البنية الحجاجية أهمّ من القيم نفسها فالقيم و إن كانت تسلّم بها جماهير سامعين عدّة فإنّ درجة تسليمها بها تكون مختلفة من جمهور إلى آخر و هو ما يعني أنّ القيم درجات و ليست كلّها في مرتبة واحدة. إنّ ما يميّز كل جمهور ليس القيم التي يسلّم بها بقدر ما يميّزه ترتيبه إيّاها».[2]

يقوم الحجاج على القيم، لكن ترتيب هذه القيم له المكانة الأهم في البنية الحجاجية، فالقيم تكتسب القوّة الإقناعية من الترتيب الذي يرتبها إياه المحاجج، لأن درجة التسليم بالقيم تختلف من شخص إلى آخر.

---

(1)- المرجع نفسه، ص 310.

(2)- Chaïm Perelman et Lucie -Olbrechts- tytica: Traité de l’argumentation- la nouvelle rhétorique, P109. In عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 310.

1 4 6 –ما المقصود بالمعاني (المواضع)؟

«إنّ للخطيب أن يعمد إلى استخدام القيم و هرميتها للرّفع من درجة إذعان الجمهور، كما أنّ له أن يستخدم مقدمات أعمّ منها و تسمّى المعاني (Les Lieux): Topos و منها اشتقّت كلمة Topiques و هي المصنّفات المجعولة للاستدلال الجدلي »[1]، المواضع إذن هي مقدّمات عامة و هذه المعاني نوعان: «وتنقسم المواضع إلى مواضع مشتركة أو مبتذلة (Lieux Communs) يمكن تطبيقها على علوم مختلفة مثل القانون و الفيزياء و السياسة كموضع الأكثر و الأقل. و مواضع خاصة (Lieux Spécifiques) تكون وقفا على علم بعينه أو نوع خطابي بعينه لا يتعداه إلى غيره. كما أنّ المواضع تحدّد خصائص الأمم والجماعات الفكرية و الأدبية و غير ذلك. و من الأمثلة على ذلك أن أفضلية ما هو ثابت و باق (Durable) موضع كلاسيكي تقابله أفضلية الأقل و هو موضع رومنطيقي».[2]

هناك نوعان من المواضع: مواضع مشتركة بين عدّة ميادين العلمية و غير العلمية كموضع الأكثر والأقل، الكلّ و الجزء، الأقوى و الأضعف... و غيرها، و هناك مواضع تختص بميدان القانون و الانتخابات تختص بالسياسة فقط، كما أنّ مواضع الخطاب الإشهاري تختلف عن مواضع الخطاب الإرشادي أو التعليمي و كذا باقي أنواع الخطابات.

تلعب المواضع دورًا هامًا في تحديد سمات الجماعات الفكرية و الأدبية و المجتمعات بصفة عامة. فمن خلال تحديد مواضع جماعة معينة نتمكن من معرفة ميزاتها و خصائصها. ومثال ذلك: نجد أتباع المذهب الكلاسيكي يفضلون الثابت و الباقي، فموضع أفضلية الثابت موضع كلاسيكي يمتاز عن موضع المذهب الرومنسي، حيث نجد روّاده يفضلون الأقل والزائل. كما نجد الاشتراكية تمجّد الجماعة في مقابل الرأسمالية التي تمجّد الفرد. فأفضلية الجماعة موضع اشتراكي في مقابل أفضلية الفرد الذي هو موضع رأسمالي.

هناك عدّة أنواع من المواضع كموضع الكّم و الكيف... و غيرها.

1 –موضع الكّم (Lieux de quantité): و هي المواضع التي تثبت أنّ شيئًا ما أفضل من شيء آخر لأسباب كمّية.

2 –مواضع الكيف(Lieux de qualité): و هي ضد الكّم من حيث إنّها نسيج وحدها فهي واحدة ضد جمع و تستمد قيمتها من وحدانيتها تلك.[3]

---

[1]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 310.

[2]– Chaïm Perelman et Lucie –Olbrechts– tytica: Traité de l'argumentation– la nouvelle rhétorique, P114. In عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 311.

[3]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 311–312.

نجد كذلك مواضع النحاة تختلف عن مواضع البلغاء كما أنّ لكل فرقة مواضعها الخاصة، فمواضع الأشاعرة تختلف عن مواضع المعتزلة و كذا أهل السنّة.

يرى كريستيان بلانتين أنّ «المواضع تحمل أنثروبولوجيا و حكاية، بعض المواضع تظهر في ثقافة معيّنة »[1] فالمواضع ليست أفكار سطحية بل تمثل عمق التفكير في مجتمع من المجتمعات، و هي تحمل سمات ذلك المجتمع و هي خاصة بجماعة فكرية معيّنة.

يذهب الباحثون إلى أن المواضع الحجاجية نوعان أي لها نوعان من الطرائق « إنّ الأشكال الحجاجية (Schémas Argumentatifs) التي يمكن اعتبارها مواضع حجاجية (Lieux Argumentatifs) أو معاني حجاجية على نوعين أي لها نوعان من الطرائق: طرائق الوصل أو الاتصال (Procédés de liaison) و طرائق الفصل أو الانفصال (Procédés de Dissociation) و معنى هذا أنّه توجد أشكال حجاجية اتصالية و أشكال حجاجية انفصالية».[2]

ترتبط هذه المواضع فيما بينها بطريقتين، فالمحاجج إمّا يلجأ إلى الوصل بين مواضعه أو يلجأ إلى الفصل بينها حسبما يقتضيه حجاجه.

لكـــن مـــا المقصـــود بالطـــرق الاتصاليـــة؟

الطرائق الاتصالية هي تلك «الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة و تمكن من إقامة روابط علاقية بينها كي يمكن دمجها في بنية حجاجية متماسكة و موحّدة ».[3]، إذن تسمح الطرائق الاتصالية بالتقريب بين عناصر متباينة في الأصل و تمكّن من نسج علاقات بينها حتى تصير بنية واضحة.

و على نقيض ذلك فإن الطرائق الانفصالية هي «عبارة عن التقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل كلاًّ لا يتجزأ، و غالبًا ما تستخدم هذه التقنيات في تفكيك الأبنية الحجاجية التي يخشى المتكلم على نجاح حجاجه منها »[4]. يملك المحاجج إمكانية تفكيك الوحدة الموجودة بين مختلف العناصر إذا خشي المتكلّم أن يفشل حجاجه جرّاء ذلك الكّل الذي لا يتجزأ.

---

[1]– Christian Plantin, Essais sur L'argumentation, P 242.

[2]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 324.

[3]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 127.

[4]– المرجع نفسه، ص 127.

نجد الجرجاني في الدلائل يربط بين عددٍ من المواضع، رأي الجمهور في الشعر وروايته، موقفهم من النحو و أبوابه، ليتحدّث بعد ذلك عن النّظم، ثم يعقد فصولا للحديث عن الاستعارة، الكناية و التمثيل وكذا الحقيقة والمجاز و غيرها من المباحث التي يستقلّ أحدها عن الآخر لكنّه ربط فيما بينها حتى تعسّر على المتلقي الفصل بينها.

1 5 التكـــــرار:

يعدّ التكرار تقنية من تقنيات الحجاج فــ «من طرائق عرض الخطاب عرضًا حجاجيًا اعتماد التكرار لإبراز شدّة حضور الفكرة المقصود إيصالها و التأثير بها، و كذلك التشديد على بعض مقاطع الخطاب من خلال الصوت أو من خلال الصمت الذي يسبق أداءها »[1] إن تكرار فكرة ما من قبل المحاجج يمنحها صبغة حجاجية، فالمرسل يكرّر تلك الفكرة قصد إيصالها للمتلقي و يؤثر عليه بها.

نجد تكرار فكرة النظم في الدلائل على امتداد صفحاته حيث يبدأ الحديث به في الفصول التالية: فصل في الفرق بين قولنا «حروف منظومة»، و «كَلِمٌ منظومة»، و بيان معنى «النظم» ورد شبهة فيه في الصفحة 49، و فصلٌ، في أنّ النظم هو توخِّي معاني الإعراب. في الصفحة 55.

وفصل آخر القول في «النظم» وتفسيره، و أنّه توخّى معاني النحو في الصفحة 80، وكذا فصلٌ في أنّ مزايا «النظم» تابعة للمعاني والأعراض، و صفة «النظم» و شواهد من محاسنه في الصفحة 87، و فصل في «النظم» يتحدّ في الوضع، و يدقُّ فيه الصنع، و شواهدُ على ما يوصف بالفصل لمعناهُ لا لنظمه في الصفحة 93، و عاد للحديث عن النظم في فصل عنونه بــ : فصلٌ، لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها، ومرجع ذلك إلى ما يُتوخَّى في نظم اللفظ و ترتيبه. في الصفحة 258. و كرّر مسألة نظم في فصلٌ وبيانٌ، و إزالة شبهة في شأن «النظم» و «الترتيب»، و هي «الحكاية». في الصفحة 359 وفصل آخر يحمل العنوان التالي: فصلٌ، بيان الجهة التي يختصُّ منها الشعر بقائله، و هي «النظم» و«الترتيب» و توخِّي معاني النحو في الصفحة 362 ثمّ كرّره كذلك في فصلٌ، تمام القول في «النظم»، و أنّه توخّى معاني النحو و الدليل على ذلك في الصفحة 373. ليتحدث عن النظم كذلك في حديثه عن «النظم» و «الاستعارة» هما مناط الإعجاز في الصفحة 391. ليكرّر هذا الموضع في أواخر كتابه في القسم الثاني، وهو الذي تكون فصاحته في «النظم» في الصفحة 451. ثم في الصفحة 546 يضع فصلاً حول بيانٌ في «النظم»، و دخول الشبهة في أمره، و أنّ مردّه إلى «الذوق».

---

[1]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته، ص 318.

لم يكرّر الجرجاني مسألة النظم اعتباطيًا بل أراد من خلال ذلك التكرار ترسيخ تلك الفكرة في ذهن المتلقي و يقنعه بذلك و يؤثر فيه و يجعله يتبنى فكرته: أن سرّ إعجاز القرآن هو نظمه و ما النظم سوى توخي معاني النحو بين الكلم.

في حالة ما إذا كان الخطاب شفهيًا فإنّ المرسل يؤثر في المتلقي من خلال التشديد على مقطع من المقاطع أو من خلال رفع الصوت تارة و خفضه تارة أخرى أو بالصمت و الكف عن الكلام «ومن طرائق العرض ذات الأثر الحجاجي أيضًا كثرة إيراد الحكايات الدائرة حول موضوعٍ واحد وإن تعارضت هذه الحكايات و تضاربت فهذا من شأنه أن يلفت الانتباه إلى أهمية الموضوع الذي تراكمت حوله الحكايات وكثيرًا ما يصحب هذا التراكم تقنية حجاجية أخرى تُتوخّى في العرض هي كثرة الإشارات إلى الدقائق والدقائق المتعلقة بذلك الموضوع تكثيفاً لحالة الحضور التي نريد أن يتّسم بها موضوعنا في ذهن السامعين ولإحداث الانفعال أيضًا فبقدر ما يكون الموضوع مخصوصًا يكون أبعث على الانفعال »[1]، قد يلجأ المرسل إلى تقنية سرد الحكايات حول الموضوع الذي يتناوله حتى و إن تضاربت هذه الحكايات فيما بينها لأنّ الإكثار من هذه الحكايات يشدّ انتباه المتلقين إلى موضوعه بيد أنّ هذا التراكم يجر معه تقنية حجاجية أخرى هي الإكثار من الإشارة إلى الأمور الدقيقة المتعلقة بالموضوع الذي يتناوله المرسِل وذلك من أجل إبقاء الموضوع حاضرًا في ذهن الجمهور و لكي يكون أكثر تأثيرا.

1 6 طريقـــة العـــرض:

يرى بعض الباحثين أنّ على المحاجج أن يعتمد أسلوبًا بطيئًا ليكون خطابه حجاجيًا فـــ « من طرائق العرض الحجاجية اعتماد أسلوب يكون بطيئًا لا عجولاً، (و قد فهمنا البطء هاهنا بمعنى الإطناب و الترديد والعجل بمعنى الإيجا ز) ذلك أنّ الأسلوب العجل يدعم توجّه الخطاب الاستدلالي والأسلوب البطيء يحدث سامعيه الانفعال و يحرّك عواطفهم».[2]

على المحاجج إذن أن يكون بطيئًا أثناء إلقائه خطابه حتى يتمكن من نفوس سامعيه، ويتمكن من التأثير فيهم و تحريك عواطفهم أمّا إذا اعتمد أسلوبًا عجولاً أي موجزًا فإنه لن يتمكن من تحقيق ذلك.

[1]– Chaïm Perelman et Lucie –Olbrechts– tytica: Traité de l'argumentation– la nouvelle rhétorique, P198. In عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 318.

[2]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 318.

نجد الجرجاني في الدلائل يطيل في قضية من القضايا أيّما (إطالة) تطويل، فيذكر الرأي والرأيين ويردّ على كل رأيّ بالحجّة و الحجّتين، و يعيد بعض المسائل في أكثر من موضع حتى تجد نفسك مقتنعًا بأفكاره، متأثرًا بها. و نجد ذلك مثلاً في حديثه عن مكانة الشعر وضرورة روايته و كذا مكانة النّحو وضرورة الاعتناء به.

1 7 -الحضـــــور:

يعدّ الحضور تقنية من تقنيات الحجاج باعتبار « أهم وسيلة تعتمد في تقديم هذه العناصر المنتقاة وسيلة الحضور (La Présence) و يتمثل ذلك في استحضار العنصر المنتقى للمحاجة و جعله ماثلاً بين أعين المخاطبين و في أذهانهم »[1] فالمرسل ينتقي مقدمات حجاجه غير أنّ ذلك ليس كافيًا بل عليه أن يجعلها حاضرة بين يدي المتلقي « و هذه الوسيلة أي وسيلة الإحضار عامل جوهري في الحجاج لطالما أهمله المنظور العقلاني في الاستدلال، و يستمدّ الإحضار أو الحضور أهمّيته الحجاجية من كونه يؤثر في وجداننا تأثيرًا مباشرًا »[2] فالأفكار أو القضايا التي يريد المرسل إقناع قارئه بها يجب أن تكون حاضرة دائمًا أمامه لأنّ حضورها هذا يؤثر فيه مباشرة.

إنّ المرسل مطالب بإخراج العناصر الهامة إلى متلقيه و لا يدعها غائبة عنه فــ « من مشاغل الخطيب أن يخرج ما يعتبره مهمًا بالنسبة إلى حجاجه من حيّز الغياب إلى حيّز الحضور كما أنّ عليه أن يشدّد على بعض العناصر التي هي حاضرة في أذهان سامعيه فيجعلها أكثر حضورًا فيها، و من هنا يأتي دور الخطابة فهي من حيث إنّها تقنية تتيح لنا أن نسلّط العقل على الخيال من أجل أن نحرّك الإرادة (...) وهو ما يعني أنّ الحاضر من حيث هو ظاهرة نفسية عنصر جوهري في الحجاج»[3] إذن يعمل المرسل على جعل العناصر الهامة لحجاجه حاضرة للمتلقين من جهة، و من جهة أخرى إذا كانت بعض العناصر حاضرة في ذهن السامعين عليه أن يشدّد عليها كي تكون أكثر حضورًا و هو ما تتيحه الخطابة باعتبارها تقنية تمكّن من تسليط العقل على الخيال، فالحاضر عنصر أساسي في الحجاج.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 314.

[2]- المرجع نفسه، ص 314.

[3]-عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 315.

1 8 الضمنيـــــات:

تلعب الضمنيات دورًا حجاجيًا فقد « أبرز برلمان أنّ الافتراضات الضمنية في بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوبًا حجاجيًا لأنّ كل إجابة مهما كان نوعها لا بدّ أن تسلم بتلك الافتراضات بل نقرّ ضمنيًا بصحّتها »[1] و هو ما يوضّحه أوزوالد ديكرو في قوله: «حين يضمن السائل سؤاله جملة من الافتراضات يكون قد أجبر المسؤول في اللّحظة ذاتها على الإجابة وفق تلك الافتراضات»[2]، يعني هذا أنّ السائل يؤثر ضمنيًا في مرسِله من خلال تحميله سؤاله عدّة إجابات، فهو يجبره بطريقة غير مباشرة على أخذ إجابة من مجموع الاختيارات، فهذا الاختيار يعدّ بمثابة التسليم بصحّتها.

2 أنـــــواع الحجـــــج:

يستخدم المحاجج في خطابه عددًا من الحجج لتحقيق هدفه، أي إقناع جمهوره. و نظرًا لتعدد هذه الحجج و تنوعها قام الباحثون بتصنيفها، فدراسة البنية الحجاجية لخطاب ما تقتضي تصنيف الحجج التي استخدمها المرسِل بعد استخراجها لمعرفة أي نوع طغى على الأنواع الأخرى.

يعتبر أرسطو من الأوائل الذين صنّفوا الحجج، فجعلها مشتركة و خاصة « "الحجج الخاصّة" عنده هي القضايا التي تكون مقدّمات ضمائر، قضايا تختص كل مجموعة منها بواحد من الأجناس الخطبية الفرّعية الثلاثة فهي _بهذا الاعتبار_ موادّ النسيج الحجاجي أو هي المعطى حسب المصطلح المستعمل في بعض الدراسات الحجاجية الحديثة أمّا «الحجج المشتركة» فهي أشكال. أشكال قولية استدلالية بها يبنى الحجاج في الخطب جميعًا، الحجاج بما هو حركة إقناعية من معطى إلى نتيجة. والعلاقة بين الحجج الأولى و الحجج الثانية هي علاقة تصمّت »[3] فالحجج الأولى _أي الخاصة_ تختلف من نوع خطابي إلى أخر و تختص بذلك النوع دون غيره، فالخطاب المشاجري له حجج خاصة به و كذلك الخطاب المشاوري و نفس الشيء بالنسبة للخطاب التشبيتي. فعندما يكون المخاطب في مقام الدفاع يستخدم حججًا تختلف عن الحجج المستخدمة في مجال النهي أو المدح... و غيرها من المقامات الخطابية. كما أنّ الرجل السياسي يوظف حججًا تختلف عن حجج الفيلسوف أو رجل القانون. و على نقيض هذه الحجج نجد حجج مشتركة بين كل الخطب القولية فبها يبنى الحجاج في كلّ الخطابات فلا تختص بنوع معيّن و هي التي تأخذ شكل **حجّـــــة ← نتيجـــــة.**

---

(1)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 253.

(2)– Oswald Ducrot, Dire et ne pas Dire, 3eme éditions, Hermann, paris 1991, P 93.

(3)– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 257.

فهذه الحجج عبارة عن شكل كما ذهب أرسطو و ليست مضمون، فعلى سبيل المثال، الحجج التي استخدمها الجرجاني في الدلائل تنتمي إلى مجال محدّد _مجال الإعجاز و الأدب_ يتميّز عن باقي المجالات، لكن شكل الحجاج الذي استخدمه لا يختلف عن غيره في شتى المجالات.

قسّم أرسطو الحجج كذلك إلى: صناعية و غير صناعية «أمّا التصديقات فبعضها غير صناعيّة وبعضها صناعيّة و أقصد بالأولى تلك التي لم نأت نحن بها بل كانت موجودة من قبل مثل الشهود و التعذيب و العقود و ما أشبهها و أقصد بالثانية ما يمكن إعداده بالحيلة و بمجهودنا و هكذا ما علينا إلاّ الاستفادة من الأولى أمّا الثانية فيجب علينا اكتشافها بأنفسنا»[1]، النوع الأول الذي تحدث عنه أرسطو هنا هو الحجج التي سبقت وجودنا و لا دخل لنا في وجودها نحو: آي القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف، الأمثال و الحكم فهي حجج لم نضعها نحن بل هي موجودة فحسب عكس النوع الثاني الذي نتحكّم به نحن، فهي حجج نضعها نحن و نجتهد في اكتشافها؛ فحجّة الإعجاز بالنظم اجتهد الجرجاني في اكتشافها و بذل جهدًا في بلورتها و جعلها حجّة قادرة على الإقناع، و كذا حججه حول مكانة النحو فهي لم تكن موجودة من قبل بل اجتهد الجرجاني في اكتشافها و إعدادها.

ذكرنا هنا بعض التقسيمات التي أتى بها أرسطو، لكن أهمّ تصنيف للحجج و الذي تداوله كل من ألّف في هذا المجال هو تصنيف، بيرلمان و تيتيكاه في كتابهما "مصنّف في الحجاج: البلاغة الجديدة" و الذي استخرجه عبد إله صولة و وضّحه بدقّة، فبهذا التصنيف استطاع أن يحيط بكلّ الحجج تقريبًا كما أبرز الفوارق الموجودة بين مختلف الحجج.

صنّف الباحثان هذه الحجج ضمن مجموعتين كبيرتين أطلقا عليها: الطرائق الاتصالية والطرائق الانفصالية، و يندرج تحت كل مجموعة عدد من الحجج.

أولا: الطرائـــق الاتصاليـــة

1 - الحجـــج شبـــه المنطقيـــة:

تعرّف سامية الدريدي هذه الحجج بقولها: «حقيقة هذه الحجج أنّ كلّ حجّة منها تستند إلى مبدأ منطقي كالتطابق أو التّعددية أو التناقض... و لكنّها خلافًا للحجج المنطقية الخالصة يمكن أن تردّ بيسر بدعوى أنّها ليست منطقية »[2]، تستعين هذه الحجج بمبادئ المنطق لكن لا يمكن أن نعتبرها حجج منطقية خالصة و هذه المشابهة بينها و بين الحجج المنطقية تجعلها أكثر إقناعًا كما يذهب عبد إله صولة « تستمد الحجج شبه المنطقية قوّتها الإقناعية من مشابهتها

---

[1]– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 262.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 191.

للطرائق الشكلية (Formelle) والمنطقية و الرياضية في البرهنة لكن هي تشبّهها فحسب وليست هي إياها إذ في هذه الحجج شبه المنطقية ما يثير الاعتراض فوجب من أجل ذلك تدقيقها بأن يبذل في بناء استدلالها جهد غير شكلي محض (Non Formel)»[1]، تشبه هذه الحجج الحجج المنطقية و الرياضية و هو ما يجعلها أكثر إقناعًا لكنّها تمتاز عنها بكونها قابلة للاعتراض عكس البراهين الرياضية فهي نهائية لا تقبل الاعتراض، كما أنّها تعتمد على البنى المنطقية كالتماثل التام أو الجزئي، قانون التعدية بالإضافة إلى اعتمادها على العلاقة الرياضية كعلاقة الجزء بالكل، علاقة الأصغر بالأكبر... و غيرها.

تنقسم الحجج شبه المنطقية إلى قسمين:

1 – 1 – الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:

1 – 1 – 1 – التناقض و عدم الاتفاق (Incompatibilité).

قد يلجأ المحاجج إلى استخدام الحجج المتناقضة في بناء حجاجه، لكن ما المقصود بالتناقض؟ «المقصود بالتناقض (Contradiction) هو أن تكون هناك قضيتان 2 (Proposition) في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى و نقض لها (...) في حين أنّ عدم الاتفاق أو التعارض بين ملفوظين يتمثل في وضع الملفوظين على محكّ الواقع و الظروف أو المقام لاختيار إحدى الأطروحتين و إقصاء الأخرى فهي خاطئة »[2]، معنى التناقض أن تكون هناك فكرتان تنفي إحداهما الأخرى، ومثال ذلك ما أتى به الجرجاني في كتابه، حيث ذكر قضيتين: يوجد في الشعر كلام هزل و سخيف، و هجاء و سبٌّ و كذب و باطل. هذا ما اشتملت عليه القضية الأولى أمّا القضية الثانية فاحتوت على ما يلي: إنّ الشعر يحتوي الصدق و الحقّ والحكمة و فصل الخطاب، و أنّه مجنى ثمَر العقول و الألباب، و هو مجتمع فرق الأدب، و أنّه قيّد على الناس المعاني الشريفة و أفادهم الفوائد الجليلة، و نقل مكارم الأخلاق من جيل إلى آخر[3]. يذكر الجرجاني هنا قضيتين تناقض إحداهما الأخرى و تنفيها إحداها تذكر مساوئ الشعر بينما الأخرى تذكر محاسنه.

لا يمكن أن نجد تناقضًا صارخًا في الحجاج من قبيل كبير/صغير لذلك نلجأ عادة إلى التأويل.

---

[1]– عبد إله صوله، الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 325.

[2]– المرجع نفسه، ص 325.

[3]– ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 11–15.

1 1 2 - التماثـل و الحـدّ فـي الحجـاج:

يعتمد هذا المبدأ على التعريف (Définition) حيث « يعمد المحتج لفكرة أو مبدأ إلى التعريف و ضبط الحدود: تعريف المفاهيم أو الأشياء أو الأحداث و الوقائع و لكن ما يقدّمه من تعريفات لا تنتمي البتّة إلى نظام شكلي بل تدّعي قيامها بدور الضبط و التّحديد رغم افتقارها إلى الدّقة و الوضوح».[1]

قد يلجأ المحاجج إلى استخدام التعريف كحجّة على رأيه، فهذا التعريف يلعب دورًا في التحديد والضبط رغم أنّ هذه التعريفات تفتقر إلى الدّقة و الوضوح فالتعريف يماثِل بين المعرّف والتعريف و مثال ذلك في الدلائل حديثه عن نظم الكلم حيث عرّفه بقوله: «...فهو إذن نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع البعض، و ليس هو «النظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق »[2] و يذكر مثال أخر يتعلق بالنظم دائمًا: «و إن كانوا لم يستعملوا "النظم" في المعاني، قد استعملوا فيها ما هو بمعناه و نظيرٌ له، و ذلك قولهم: «إنّه يرتب المعاني في نفسه، و ينزّلها، و يبني بعضها على بعض »، كما يقولون: " يرتِّب الفروع على الأصول، ويتبع المعنى المعنى، و يلحق النظير بالنظير "»[3] هذه بعض الأمثلة التي استطعنا استخراجها فيما يتعلق بمبدأ التماثل.

يعرف فليب بروتن حجّة التماثل بقوله: « تقوم حجّة التماثل على إنشاء مراسل بين مجالين من الواقع منفصلين حتى الآن و التي تسمح بنقل صفات إحداهما المعروفة إلى الأخرى»[4] يَسمح التماثل إذن بنقل صفات تتعلق بأحد القطبين المتماثلين إلى الأخر رغم أنّه لا يوجد حقًا ارتباط بين ألفاظ التماثل.

1 1 3 - الحجـج القائمـة على العلاقـة التبادليـة (Arguments de réciprocité) وعلى قاعـدة العـدل و هـي ممّـا يعتمـد فيـه البنـى المنطقيـة:

تقوم هذه الحجج على قاعدة العدل، فيما تتمثل هذه الحجج: «تتمثل هذه الحجج في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة و هو ما يعني أنّ تينك الوضعيتين متماثلتان و إن بطريقة غير مباشرة. و تماثُلهما ضروري لتطبيق قاعدة العدل (La Règle de justice) و قاعدة العدل هي تلك القاعدة التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلة في مقولة واحدة»[5] تعني هذه الحجج أنّ هناك قضيتين نعالجهما من خلال معالجة قضية واحدة

---

[1]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 200.

[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49.

[3]- المصدر نفسه، ص 53.

[4]- Philippe Breton, L’argumentation dans la communication, P 97.

[5]- عبد إله صوله، الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 328.

فقط، كون هاتين القضيتين متماثلتين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. و هذا التماثل يسمح لنا بتطبيق مبدأ العدل الذي يقتضي معاملة القضيتين معاملة واحدة باعتبارها تنتمي إلى صنف واحد.

تضيف سامية الدريدي في هذا السياق: « "المبادلة" أو "التبادل" (Réciprocité) و هي علاقة منطقية خالصة غير أنّ الحجّة تظلّ شبه منطقية فحسب لأنّها إسناد للحكم ذاته إلى أمرين ندّعي أنّهما متماثلان والحال أنّنا لو أخضعناهما إلى الدراسة الدقيقة لانتهينا إلى فروق عديدة بينهما»[1] فرغم أنّ مبدأ التبادل منطقي بحت إلاّ أنّه في الحجاج يصير شبه منطقي و ذلك أنّ التماثل بين المسألتين ليس حقيقيًا إذ تبقى اختلافات بينهما.

1 1 4 حجج التعدية (Arguments de transivité)

تعرّف التعدية كما يلي: « إنّ التعدّية خاصية شكلية تتّصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمرّ من إثبات أنّ العلاقة الموجودة بين أ و **ب** من ناحية و **ب** و **ج** من ناحية أخرى هي علاقة واحدة إلى استنتاج أنّ العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين أ و ج»[2] إذن التعدية هي: إذا كان هناك علاقة بين أ و ب من جهة و كانت هناك علاقة بين ب و ج من ناحية أخرى فهذا يؤدي إلى وجود نفس العلاقة بين أ و ج و مثال ذلك: 10<5 و 5<1 إذن 10<1 وبالرموز نحصل على ما يلي: أ<ب و ب<ج => أ<ج.

تقوم خاصية التعدية على عدد من العلاقات كالتساوي، التفوّق، و التضمّن: أ=ب وب=ج => أ=ج   أ ∋ ب و ب ∋ ج => أ ∋ ج.

اعتمد الجرجاني على هذه الحجّة عندما تحدّث عن سرّ إعجاز القرآن الكريم حيث: يرى الجرجاني أنّ معرفة سرّ الإعجاز هي معرفة نظمه، و معرفة النظم تقتضي معرفة باللغة، و الشعر ديوان العرب و على الذي يريد معرفة اللغة أن يكون على دراية كبيرة بالشعر، إذن معرفة سرّ إعجاز القرآن تقتضي معرفة بالشعر، و نفس الشيء بالنسبة للنحو و علاقته بإعجاز القرآن الكريم.

1 2 – الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

1 2 1 إدماج الجزء في الكّل:

تعتمد هذه الحجج على علاقات رياضية و منها إدماج الجزء في الكلّ و «يكون الحجاج في هذه الحالة قائمًا على النموذج التالي: "ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء" (...) و تكون العلاقة في إدماج الجزء في الكلّ منظورًا إليها عادة من زاوية كميّة، فالكل يحتوي

---

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 201.

[2]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 329.

الجزء و تبعًا لذلك فهو أهمّ منه و هو ما يجعل هذا الضرب من الحجاج في علاقة بمواضع الكّم أو معاني الكّم...».[1]

في هذا النوع من الحجج ندمج الأجزاء في الكل فتبيّن أن ما ينطبق على هذا الكلّ ينطبق على كلّ جزء من أجزائه. و مثال ذلك في مدونتنا إعلاؤه لمكانة النظم باعتبارها مكمن الإعجاز، والنظم عنده ليس إلاّ توخي معاني النحو، فأعلا بذلك مكانة النحو، فالنحو جزء من ذلك الكلّ أي النظم فأدمج الجزء في الكلّ.

1 2 2 -تقسيــم الكــلّ إلـــى أجزائـــه المكوّنـــة لـــه:

تعرّف سامية الدريدي هذا النوع بما يلي: «ينصّ هذا الصّنف من الحجج على تقسيم كلِّ إلى أجزائه المكونة له و بيان أن حكمًا ما ينطبق على كلّ جزء من أجزائه ينطبق تبعًا لذلك على الكلّ على هذا النحو يبدو هذا الصّنف من الحجج مقنعًا في ظاهره لصبغته الرياضية الواضحة و لكنّه في الحقيقة لا يعدوا أن يكون شبه منطقي فحسب لأنّ الأجزاء لا تعبّر في كلّ الحالات و بدقّة عن "الكلّ" »[2]، في هذا النوع من الحجج ما ينطبق على الأجزاء ينطبق على الكلّ الذي يظم هذه الأجزاء. و هذا النوع من الحجج يتمتّع بقوّة إقناعية للصبغة الرياضية التي تطغى عليه إلاّ أنّه يبقى مع ذلك حجّة شبه منطقية.

2 -الحجـــج المؤسَّسَـــة علـــى بنيـــة الواقـــع:

تقول سامية الدريدي في هذا النوع من الحجج « لا يعتمد هذا الصِّنف من الحجج على المنطق وإنّما يتأسس على التجربة و على علاقات حاضرة بين الأشياء المكوّنة للعالم، فالحجاج هنا ما عاد افتراضًا و تضميناً بل أصبح تفسيرًا و توضيحًا، تفسيرًا للأحداث و الوقائع وتوضيحًا للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشيائه».[3]

نبتعد في هذا النوع من الحجج عن المنطق و نتّجه نحو الواقع إلى الوضوح و الواقعية بدل الافتراض و التجريد و تبحث هذه الحجج عن العلاقة الموجودة بين عناصر الواقع وأشيائه.

يضيف بيرلمـــان أنّ « الحجج التي تُعتمـــد فيهـــا بنى الواقع لا تصف الواقع وصفاً موضوعيًا وإنّما هي طريقة في عرض الآراء المتعلّقة بهذا الواقع و يمكن أن تكون هذه الآراء وقـــائع (Des Faits) أو حقائق (Des Vérités) أو افتراضات (Des Présomptions)».[4]

---

[1]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 330.

[2]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 207.

[3]-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 214.

[4]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 332.

لا يعني بناء الحجج على الواقع نقل ذلك الواقع بحذافيره أو بصورة فوتوغرافية و إنّما ينقل تلك العلاقات التي تربط عناصر هذا الواقع، لأنّ المتكلّم يظنّ أنّ خطابه سيكون أكثر إقناعًا إذا ارتبط بالواقع ومن أمثلة ذلك في الدلائل احتجاجه للنّظم و تعدّد المعاني و اختلافها بتعدّد الألوان التي تستخدم في الرسم والزخرف و هي حجّة من الواقع استعملها الجرجاني كي يكون حجاجه أقرب إلى السامع وأوضح و أكثر إقناعًا. يقول: «و إذ قد عرفت أن مدار أمر «النظم» على معاني النحو و على الوجوه و الفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها (...) و إنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعْمَلُ منها الصور و النقوش، فكما أنّك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة و النقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيّر والتدبُّر في أنفس الأصباغ و في مواقعها و في مقاديرها و كيفية مزجه لها و ترتيبه إيّاها، إلى ما لم يتهدَّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، و صورتُه أغربَ، كذلك حال الشاعر و الشاعر في توخّيِهما معاني النّحو و وجوهه التي علمت أنّها محصول «النّظم»»[1] احتجّ الجرجاني لتعدد المعاني و اختلافها في نظم الشعر بتعدّد ألوان الأصباغ التي يستخدمها الرجل في الرسم و النقش لتكون حجّته أقرب للسامع و أكثر إقناعًا.

تربط هذه الحجج بين الآراء أو الأحكام وفق ضربين:

1 –الاتصال التتابعي Liaison de succession الذي يكون بين ظاهرة ما و بين نتائجها أو مسبّباتها.

2 –الاتصال التواجدي Liaison de coexistence الذي يكون بين شخص و بين أعماله و عمومًا بين الجوهر و تجلّياته.[2]

يقوم الاتصال التتابعي بالربط بين الظواهر و نتائجها أو بين الظواهر و أسبابها. أما الاتصال التواجدي فيقوم على الربط بين العمل و صاحبه الذي أوجده.

يجب أن نشير إلى أنّ لكل ضرب من هذين الضربين وجوه سنذكرها باختصار.

أ –وجــوه الاتصـــال التّتابعـــي:

❈ **الوصـــل السببـــي:** و يتحقق إمّا بالربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي، أو باستخلاص سبب وقوع حدث ما، أو بالتكهّن بما سينّجر عن حدث معين من نتائج. [3] يُمكّننا هذا الربط من المرور في الاتجاهين: من السبب إلى النتيجة و من النتيجة إلى

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 87.

[2]– ينظر، عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 332.

[3]– ينظر، عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 332.

السبب. و ينتج عن ذلك حجّة براغماتية Argument Pragmatique و « للحجّة البراغماتية تأثير مباشر في توجيه السلوك و عدّت من أهم وسائل الحجاج. إنّ مدار هذه الحجّة كما قلنا تثمين حدث ما بذكر نتائجه فعلى هذا لا يكون المقصود من هذه الحجّة مجرّد التثمين بل و توجيه العمل أيضًا »[1]. ينتج لنا هذا الانتقال الثنائي الاتجاه حجّة غاية في الأهمية هي الحجّة البراغماتية والتي تلعب الدور الهام في توجيه سلوك المتلقين.

- ❈ **حجّــة التبذيــر: (Argument de gaspillage)** تتمثل هذه الحجّة في ضرورة إكمال ما شرعنا في إنجازه و كذا استغلال المواهب المعطاة و المزايا الطبيعية لأنّها إن لم تستغل فقدت معناها وذهبت هباءً [2]، فما دام المتكلّم قد بدأ مشروعه فعليه أن يتمّه و إلاّ لكان ذلك مضيعة للمال و الجهد.
- ❈ **حجّــة الاتجــاه: (Argument de Direction)** تمكّن هذه الحجّة من دفع أمور كثيرة لا اعتراض عليها في ذاتها و رفض أطروحات لا خلل فيها و إنّما نرفضها وندفعها لسبب واحد هو أنّه إذا طبقّناها أو عملنا بها فإنّها قد تؤدي بنا إلى غاية لا ننشدها و إلى نتيجة نتحاشى حدوثها [3]. بعبارة أخرى أنّ هذه الحجّة تمكّننا من تجنّب تحقيق الأهداف التي لا نرمي إلى تحقيقها و ذلك عن طريق رفضنا لأطروحات صحيحة لكنّها قد تؤدي إلى نتيجة عكسية.

ب -وجــوه الاتصـــال التواجــدي:

- ❈ **الشخـــص و أعمالـــه:** يعتبر الإنسان في الحجاج ذا صفات معيّنة، منشأ لأعمال وأحكام معيّنة، بالإضافة إلى أنّه موضوع تقويم من قبل الآخرين، و يعتبر اللجوء إلى القصد والنّية مناط الحجاج باعتبار أنّه يربط العمل بصاحبه و يعين على فهم ذلك العمل وكذا تقويمه[4]. و ذلك أن الصلة بين أيّ شخص و أعماله وثيقة فالشخص إذا اتّخذ موقفًا معينًا أو قام بفعل ما ذلك لأنّه معروف بخصال معلومة منذ زمن طويل و أنّها ستبقى كذلك ما دام على قيد الحياة.
- ❈ **حجّــة السلطــة:** (Argument D'autorité) و تتمثل في الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتمادًا على قيمة صاحبها [5]. فهذه الحجّة تعتمد على هيبة المتكلّم و نفوذه

---

[1]– المرجع نفسه، ص 333.

[2]– ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 224.

[3]– ينظر، المرجع نفسه، ص 225.

[4]– ينظر، عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 334.

[5]– ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 232.

وسطوته. «وتختلف السلطة في حجّة السلطة و تتعدّد تعدادًا كبيرًا فقد تكون "الإجماع" أو "الرأي العام" أو "العلماء" أو "الفلاسفة" أو "الكهنوت" أو "الأنبياء" و قد تكون هذه السلطة غير شخصية (Impersonnelle) مثل "الفيزياء" أو "العقيدة" أو "الدين" أو "الكتاب المقدّس"»[1]. إذن قد تتعلق السلطة بالشخص كمكانته أو هيبته و قد تتعلّق بأمور خارجة عن الشخص تتعلّق بالطبيعة أو بالمعتقدات. فللقرآن الكريم والحديث الشريف سلطة كبيرة في الخطاب.

- ❈ **الاتصـــال الرّمـــزي:** (La Liaison Symbolique) يعـــود السبب في اعتبار الترابط الرمزي تواجديًا إلى قيمة الرمز و دلالتـــه اللّتان تستمدّان ممّا يوجـــد من ترابـــط واتصال تزامنيّ بين الـــرّامز والمرموز إليه إذ أنّ العلاقة بينهما هي عـــلاقـــة مشـــاركـــة[2] (Rapport de Participation) و ما يجعل هذا الاتصال حجاجيًا هو علاقة المشاركة أو التبرير التي تربط بين الرمز و المرموز إليه والتي تثير مجموعة من العواطف والأحاسيس.

3 - الحجـــج المؤسَّسَـــة لبنيـــة الواقـــع:

ترتبط هذه الحجج أيضًا بالواقع، لكن بطريقة تختلف عن الحجج السابقة، فهي لا تتأسس على الواقع و لا تبنى على بنيته و إنّما هي « التي تؤسس هذا الواقع و تبنيه أو على الأقل تكمّله و تظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه أو تجلي ما لم يتوقع من هذه العلاقات و ما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوّناته »[3]، تقوم هذه الحجج إذن ببناء الواقع أو بالأحرى تكمّله و لا تعتمد عليه كما تقوم بكشف العلاقات المتخفية الموجودة بين أشيائه.

يتم تأسيس الواقع بواسطة تقنيتين:

3 - 1 - تأسيـــس الواقـــع بواسطـــة الحـــالات الخاصـــة:

تتمثل هذه الحالات الخاصة في المثل، الاستشهاد و كذا النموذج و عكس النموذج فـــ«المحاجة بواسطة المثل تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة الخاصة التي جيء بالمثل لدعمها وتكريسها»[4]، و من المثل التي استخدمها الجرجاني، ما ذكره في تقديمه الحجّة على أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة أو كلم مفردة بل تتفاضل من خلال

---

[1]- عبد إله صوله، الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته، ص 335.

[2]- ينظر، المرجع نفسه، ص 336.

[3]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 242.

[4]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 337.

ملائمتها لمعنى جاراتها. يقول: «و مما يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقُك و تُؤنسك في موضع، ثمّ تراها بعينها تَثْقُل عليك و تُوحِشك في موضع آخر، كلفظ "الأخْدَع" في بيت الحماسة:

تلفَّتُ نَحْــوَ الحَيِّ حتَّى وَجَدْتُنِي وَ جِعْتُ من الإصْغاءِ ليتًا و أَخْدَعَا.

و بيــت البحتــري:

و إِنِّي و إن بلّغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى وَ أَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطَامع أخدعي.

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخص من الحسن، ثمّ إنّك تتأمّلها في

بيــت أبــي تمــام:

يَــا دّهْرُ قَوِّمْ مِن أَخْدَعَيْكَ، فَقَدْ أضجَجتَ هَذَا الانَــامَ مِنْ خُرُقِــكْ.

فتجد لها من الثِّقَل على النفس، و من التنغيص و التكدير أضعاف ما وجدت هناك من الرُّوح والخفّة، و من الإيناس و البهجة»[1]، فقد حدث خلاف كبير بين العلماء حول إلحاق صفة الفصاحة للكلمة المفردة وكذا إمكانية تفضيل كلمة مفردة عن أخرى. حيث دعى الجرجاني إلى ضرورة اعتبار مكانها من النظم والتأليف.

يذكر الباحثون أيضًا فيما يتعلق بالحالات الخاصة "الاستشهاد" فــ «لئن كانت الغاية من المثل تأسيس القاعدة فإنّ الاستشهاد من شأنه أن يقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة و ذلك بتقديم حالات خاصة توضّح القول ذا الطابع العام. و تقوّي حضور هذا القول في الذهن. و على هذا فإنّ الاستشهاد يؤتى به للتوضيح في حين أنّ المثل يؤتى به للبرهنة و لتأسيس القاعدة »[2]، يظهر الفرق جليًا بين المثل والاستشهاد، فالمثل يستخدم للبرهنة بينما نستخدم الاستشهاد لتوضيح الفكرة فقط فالمثل أقوى حجاجيًا، غير أنّ الاستشهاد يبقى تقنية من تقنيات الإقناع.

اعتمد الجرجاني في حجاجه على الاستشهاد، و ذلك بذكر أقوال لعلماء سبقوا عصره كالجاحظ وسيبويه و غيرهم، ففي حديثه عن التقديم و التأخير يقول: «و اعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئًا يجري مجرى الأصل، غيرَ العناية و الاهتمام. قال صاحب الكتاب و هو يذكر الفاعل و المفعول: « كأنّهم يقدّمون الذي بَيَانُه أهمُّ لهم، و هم ببيانه أَعْنَىَ. و إن كانا جميعًا يُهِمَّانهم و يعنيانهم»، و لم يذكر في ذلك مثالاً»[3]، هكذا يستشهد الجرجاني بقول لسيبويه ليوضح رأيه في مسألة من المسائل.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 46-47.

[2]- عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 337.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 107.

يعتمد المحاجج على حالة خاصة أخرى تعرف بالنموذج و عكس النموذج (le modèle et l'anti-modèle) «و مداره على كائن نموذج يصلح على صعيد السلوك لا لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب و إنّما يصلح كذلك للحضّ على عمل مّا اقتداء به ومحاكاةً له و نسجًا على منواله و إن بطريقة غير موفّقة تمام التوفيق »[1]، فللنموذج قدرة على توجيه المتلقي إلى سلوك معيّن و قيادته نحو موقف محدّد و هذا يستدعي الدّقة في اختيار هذا النموذج حتى يكون جديرًا بالإقتداء.

3 2 – الاستدلال بواسطة التمثيل: Analogie

يتحدّث الباحثون عن علاقة الشبه في التمثيل، إذ هو « احتجاج لأمرٍ معيّن عن طريق الشّبه التي تربطه بأمر آخر فندخل بذلك مجال "التشبيه" و "الاستعارة"... »[2]، يقدّم لنا التمثيل تصوّرًا للأشياء و ذلك ما يسمح لنا باستخدامه حجاجيًا.

يعطي بيرلمان و تيتكاه التمثيل مكانة في الحجاج باعتباره «أداة برهنة فهو ذو قيمة حجاجية و تظهر قيمته الحجاجية هذه حين ننظر إليه على أنّه تماثل قائم بين البنى. و صيغة هذا التماثل العامة هي: إن العنصر| أ | يمثّل بالنسبة للعنصر| ب | ما يمثّله العنصر| ج | بالنسبة إلى العنصر| د | (...) ومعنى ذلك أنّ التمثيل مواجهة بين بنى متشابهة و إن كانت من مجالات مختلفة»[3]، يمنح التماثل بين البنية و الأخرى قيمة حجاجية تمكّننا من استخدامه كحجّة لإقناع المتلقي، فـ «... التمثيل أسلوب يتوخّاه المتكلم في الاحتجاج فيقدّمه على أنّه دليل أقوى لصالح النتيجة المتوخاة وهذه الخاصيّة المميّزة للقول التشبيهي أو الاستعاري هي التي تجعله فوق الإبطال و لذلك أكّد الدّارسون أنّه يعسر على المرء أن يتصوّر إمكان ورود دليل مضادّ بعد تشبيه أو استعارة يخدم النتيجة المعاكسة أمّا الأقوال العادية فيمكن بيسر إحلالها في سياقات الإبطال أو التّعارض الحجاجي »[4]، يتجلى التمثيل في الخطاب في التشبيه و الاستعارة فيمنح المحاجج بذلك خطابُه قوّة تجعله لا يعارض ولا يردّ، و هذا عكس الكلام العادي الذي يدحَض بسهولة و يسر. فالاستعارة أداة حجاجية بامتياز.

و تعود صعوبة ردّ الأقوال التي تحتوي على التّشبيه و الاستعارة إلى « توريط المتلقّي وإجباره على تأويل البيت و تفكيك الصورة و بذلك يقع إلزامه بالنتيجة التي انتهى إليها بعد تفكيك وتأويل».[5]

---

(1)– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 338.

(2)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 252.

(3)– عبد إله صوله، الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 339.

(4)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 264.

(5)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 269.

يصنع المرسِل صورة (تشبيه أو استعارة) من خياله فيجبر المتلقي على تفكيك تلك الصورة بالطريقة التي يريدها المرسل مما يجعل المتلقي مجبرًا على الأخذ بالنتيجة التي توصّل إليها و هو ما يمنح الاستعارة و التشبيه هذه القوّة. و كثيرًا ما يلجأ المرسلون إلى هذا النوع من الحجج لإثراء مواقفهم و تقويتها. و كلّما أخفى المرسِل علاقة الشّبه بين الطرفين كانت الصورة أكثر تأثيرًا و زادت قوّتها الحجاجية.

4 – الحجــج التـــي تستدعـــي القيـــم: (Argument basés sur les valeurs)

نصل الآن إلى رابع نوع من الحجج و هي تلك التي تستدعي قيما سواء كانت دينية أو اجتماعية... وغيرها و ذلك بسبب الأثر الذي قد تتركه هذه القيم في أفراد المجتمع.

فالمحجاج لا يتوانى عن استخدام أي وسيلة من أجل إقناع جمهوره فقد يلجأ إلى استخدام حجج ذات سلطة كبيرة تمكّنه من دخول العوالم الشّعورية و الفكرية للمتلقي لذلك يتّجه إلى هذا النوع من الحجج «فالمحتج لتبرير الآراء و إثبات المواقف يعتمد قيمًا ينتقيها بدقّة بحيث تلائم أهدافه الحجاجية و غايات خطابه المنشودة فترى المتكلّم يرفض فكرة ما بحجّة أنّها تعارض قيمة معيّنة ويدعوا إلى موقف ما باسم قيمة محدّدة و ينعى على الخصم سلوكا ما لأنّه يتنافى مع قيمة واحدة أو مجموعة قيم».[1]

وقد استعمل الجرجاني هذا النوع من الحجج فلجأ إلى تكريس قيمة دينية، حيث اعتبر الزهد في النّحو صدًّا عن كتاب الله عزّوجلّ فلا يمكن لمسلم أن يسمع هذا القول فلا ينكبّ على دراسة النحو و اكتشاف مكنوناته و أسراره.

قد يشترك الجميع في قيم معيّنة كالإنسانية، و العدل و الأخوّة بينما هناك قيم تنفرد بها جماعة واحدة فهي محلّ اتفاق قومٍ يلتزمون بتطبيقها و يحرصون على احترامها، فهي تختلف من مجتمع إلى آخر و تتباين من بيئة إلى أخرى، فالقيم التي يحرص المجتمع البدوي تختلف عن قيم المجتمع الحضري.

5 – الحجــج التـــي تستدعـــي المشتـــرك:

يعدّ هذا النوع آخر أنواع الحجج إذ « ثمّة نزوع واضح في الخطابات الحجاجية إلى استدعاء "المشترك" أي الاستناد إلى ما يشكّل موضوع اتّفاق بين المتلقّين أو يمثّل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم، ذلك أنّ للمشترك سلطة على النفوس فهي تذعن لما تعوّدت عليه أو لكل ما يستدعي ما تعوّدت عليه وتنفر مما يخالف ما عرفته و يجانب ما آمنت به وصدّقته»[2]، فلكي يتمكّن المحاجج من إقناع المتلقي عليه أن يستخدم تلك المعارف المشتركة

---

[1]– المرجع نفسه، ص 270.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 287.

بينهما أو يوظّف تلك المعارف الشائعة بين الناس لكي لا يقابل بالصدّ والرّفض، لأنّ الإنسان مهيأ لتقبل الأشياء المعروفة لديه بينما الأشياء الجديدة تلقى الصدّ دائما و تجد صعوبة في أخذ موقع لها _على الأقل في بداية ظهور هذا الجديد_ فاستدعاء المشترك دعامة أساسية من دعائم الحجاج فبه يقنع المحاجج متلقيه بأفكاره و مبادئه و يحمله على الإذعان لما ورد في خطابه.

ثـــانيـــا:الطرائـــق الانفصاليـــة

تختلف هذه الأنواع عن الأخرى من حيث الوظيفة و الهدف؛ فالأولى تسعى إلى ربط أطراف الخطاب و جعل مفاهيمه مترابطة بينما يقوم هذا النوع بالفصل بين المفاهيم.

تملك الحجج شبه المنطقية و الحجج المؤسسة على بنى الواقع و الحجج المؤسسة لبنى الواقع القدرة على الربط بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها، بينما الفصل يكون في عناصر موحّدة « إنّ الانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها و مفهوم واحد لها، فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد يعيّنها و إنّما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج»[1]. في بعض الأحيان قد يستدعي الحجاج تفكيك عناصر تندرج تحت نفس الاسم و لا بدّ من توفّر وحدة بين هذه العناصر.

يضيف عبد إله صولة بعد ذلك « و المقصود بالطرائق الانفصالية (Procédés de Dissociation) التقنيات المستخدمة لغرض إحداث القطيعة و إفساد اللحمة الموجودة بين عناصر تشكّل عادة كلاّ لا يتجزأ أو على الأقل كلا متضامنة أجزاؤه في نطاق نظام فكريّ واحد»[2]. تحقّق هذه الطرق القطيعة بين عناصر متلاحمة تحت كلٍّ لا يتجزأ أو كلٍّ ينتمي إلى فكرة واحدة.

لكن كيف تتجلى طرائق الفصل في الأقوال و الخطابات؟

تتجلى بطرائق من قبيل: هو شبه كذا، اللاّ كذا، غير كذا، بعض الجمل الاعتراضية، بعض الأفعال مثل: يزعم، يتوهّم، وضع بعض الأقوال بين قوسين أو مزدوجين.[3]

و من أمثلة ذلك في الدلائل استخدامه لأفعال من قبيل: فخُيِّل إليها، فظنّتهُ، نحِّ الهوى عنك، راجع عقلك، توهّمت، أمّا من زعم. هذا منك وهمٌ. هذا ظنٌ فاسد.

---

[1]– عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 343.

[2]– المرجع نفسه، ص 324.

[3]– ينظر، عبد إله صوله، الحجاج: أطره و منطلقاته و تقنياته، ص 345.

يقول في موضع أخر « و لو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة: «إنّها خصوصية في نظم الكلم...» أو ما أشبه ذلك من القول المجمل (...) و ذلك ما لا يقوله عاقلٌ »[1]. و كثيرًا ما يضع الجرجاني لفظ «النظم» بين قوسين ليقوم بتفصيل أجزائها المكوّنة لها فيتناول كلّ جزء على حدى.

ذكرنا هنا أنواع الحجج التي صنّفها الباحثون، لكن لا بدّ من الإشارة إلى بعض المسائل؛ إن وضع حُدود واضحة بين هذه الأصناف ليس بالأمر الهيّن، إذ كثيرًا ما تتداخل الحجج فيما بينها. و من جهة أخرى قد تدخل الحجّة الواحدة المستخرجة في أكثر من نوع. بالإضافة إلى أنّ الخطاب قد يحتوي على نوع أو نوعين أو أكثر لكن ليس بالضرورة أن نجد كلّ الأنواع في خطاب واحد.

3 العــلاقــات الحجاجيــة:

يقوم الباث في خطابه بربط كلامه و بوصل أجزائه فتتأسس بذلك العلاقات الحجاجية التي يريدها، لتقوم حجّته بدورها على أتمّ وجه. كما تتّسم هذه العلاقات بالتعقيد «إن الخطاب الحجاجي شبكة معقّدة من العلاقات؛ و مأتى التعقيد فيها أنها علاقات غير عاديّة فهي علاقات مخصوصة "موجّهة" تحكمها معطيات كثيرة منها ما يتّصل بالباث و منها ما يعود إلى المتلقي ومنها ما يرجع أيضًا إلى وضعيات الخطاب وغاياته و مختلف مقاصده».[2]

يحتوي الخطاب الحجاجي إذا على عدد هائل من الحجج تتداخل فيما بينها مشكلة شبكة معقّدة. لأنّ هذه العلاقات علاقات مخصوصة تتعلّق بالمرسل تارة و قد تتعلق بالمتلقي و في حالات ما تتعلّق بوضعية الخطاب و غايته.

يجب على محلل الخطاب أن ينتبه إلى الموقع الذي تحتله علاقة حجاجية، فذلك الموقع يساهم في تحديد وظيفتها و تبيان مدى حجاجيتها « فأن يقدّم المتكلّم علاقة و يؤخّر أخرى أو أن يجري العلاقة ذاتها على مسافة ممتدّة من الخطاب و يقصي علاقة أخرى فلا يكاد غيابها يخفى على المتلقي أمور لا تخلو من دلالة إذ تنأى عن الصّدفة و الاتفاق و تأتي عادة محمّلة بعميق الدّلالات»[3]. إنّ توظيف علاقة دون أخرى و كذا ترتيبها بطريقة معيّنة ليس أمرًا اعتباطيًا، بل على عكس ذلك بل هو توظيف يحمل دلالة و يكشف عن إستراتيجية المرسِل لإقناع متلقيه.

تتعدّد العلاقات التي ينسجها المرسل في خطابه، فنجد العلاقة السببية، علاقة الاقتضاء، علاقة الاستنتاج، علاقة التتابع، علاقة عدم الاتفاق.

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 35.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 317.

[3]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 317.

يرى طه عبد الرحمن أن النص الحجاجي ينبني على العلاقة الاستدلالية يقول: «إن حقيقة الخطاب الانبناء على العلاقة الاستدلالية، و أنه لا علاقة استدلالية إلاّ بتحصيل قصدين اثنين هما: "قصد الادعاء" و"قصد الاعتراض" غير أنّ هذين القصدين قد يجيئا على مقتضى التجريد أو التفريق أو الجمع».[1]

تلعب العلاقة الاستدلالية _حسب ما يذهب إليه طه عبد الرحمن_ دورًا أساسيًا في الخطاب الحجاجي شريطة أن يقوم على قصد الإدعاء أي الدفاع عن وجهة نظره أو قصد الاعتراض بمعنى دحض وجهة نظر الآخرين، و قد يبني المرسِل حجاجه على وجهة نظره فحسب و قد يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر المعترضين.

و مـــن أهـــم العلاقـــات الحجاجيـــة:

3 1 عـــلاقـــة التتابـــع:

تقول سامية الدريدي فيما يتعلق بهذه العلاقة: «إنّ الاستدلال في جوهره عملية معقّدة تسمح بالربط بين فرضيّات كثيرة و قضايا متعدّدة بل تسمح بالجمع في الوقت ذاته بين الحديث و متتبعاته، بين الفعل ونتائجه، بين السّابق و لواحقه. فتستجيب بذلك إلى شرطين أو تحقق معادلتين يعسر الجمع بينهما هما التّطور المطّرد و التّناغم البيّن و لذلك تبدوا العلاقة التتابعيّة ذات طاقة حجاجية هامّة»[2].

تذهب الباحثة إلى أنّ الاستدلال عمليّة معقّدة، و يكمن ذلك التعقيد في كونه يمكّننا من الربط بين مختلف القضايا، إضافة إلى ذلك فإنّ الاستدلال يسمح بالجمع بين الكلام و توابعه، بين الفعل ونتائجه، بين السّابق و لواحقه في الآن ذاته، فهذه العلاقة تسمح في الخطاب بربط مختلف أجزائه المتتابعة في الزّمن أو التي تأتي نتيجة لفعل محدّد.

يقع التتابع على مستويين: مستوى الأحداث و مستوى الأفكار. فـــ «التتابع يقع إجمالاً على مستويين: أحدهما مستوى الأحداث (...) فتنغرس الحجّة في الواقع و تنتهي بداهة إلى أحد الصّنفين اللّذين تحدّثنا عنهما في الباب السابق و هما: الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع أو المؤسسة لبنية الواقع، و ثانيهما مستوى القضايا أو الأفكار فتنتمي الحجّة عندها إلى صنف الحجج شبه المنطقية»[3]. إذن قد يعمد المحاجج إلى ذكر مجموعة من الأحداث المتتابعة فتكون الحجّة بذلك مؤسسة على بنية الواقع أو مؤسسة لبنية الواقع، و من جهة أخرى قد يلجأ المرسِل إلى ذكر الأفكار وجعل بعض تابعة لأخرى.

---

[1]– طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، ص 229.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 321.

[3]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 321.

يحقق هذا التتابع للخطاب تطوّره المتزايد و تناغمه الواضح و هو ما نجده عند الجرجاني في الدلائل حيث قدّم الحجج لمكانة العلم ثم تبعها بمكانة علم البيان ليبيّن بعد ذلك مكمن الفصاحة و البلاغة ثم يقدّم الوسيلة لمعرفة ذلك و هي معرفة الشعر و علم الإعراب ليخلص في الأخير إلى مكمن سرّ الإعجاز.

نشير في الأخير إلى أنّ التتابع « لا يتمّ على مستوى الأفعال و الأحداث أو الأفكار والمواقف فقط، بل قد يبدوا واضحًا جليًا على مستوى أعمق يتصلّ بالحجج فيما بينها »[1]. يكون التتابع على مستوى الحجج أيضًا و لا يقتصر على الأفكار و الأحداث.

3 2 العلاقـــة السببيّـــة:

تعتبر العلاقة السببيّة من أهم العلاقات الحجاجية و أكثرها تأثيرًا في المتلقي فهي « في حقيقة الأمر ضرب مخصوص من العلاقات "التتابعية" إذ يحرص المتكلّم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحق عاديّ بينهما و تتابع طبيعي يجعل الأحداث والأفعال و الأفكار والأحكام متسلسلة متجاوبة بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة فيجعل بعض الأحداث أسبابًا لأحداث أخرى و يسمى فعلا ما بأنّه نتيجة متوقّعة لفعل سابق و يجعل موقفًا معيّنًا سببًا مباشرًا لموقف لاحق »[2]. تتّسم هذه العلاقة بالعمق الذي يتجلى في الربط بين الأفكار و جعل هذه سببًا في تلك و تلك نتيجة لهذه. و لا يكتفي بجعل هذه تتّبع تلك طبيعيًا بل لا بدّ من وجود رابط بين مختلف الأجزاء.

عندما يذكـــر الجـــرجـــانـــي أنّ النظـــم هو تـــوخّـــي معـــانـــي النحـــو في الكلـــم، فإنّه يشيـــر إلى ضرورة معرفة النحو، فالعلاقة التي تـــربـــط بين معـــرفة علـــم الإعراب والنظم عـــلاقـــة سببيـــة، فالـــذي يـــريـــد معـــرفـــة مـــاهيـــة النظـــم عليه أن يكون على درايـــة بالنحـــو، فالحجـــج التـــي ســـاقهـــا الجـــرجـــانـــي ليبـــرز مكـــانـــة النحـــو ويـــذهب الزهد عنه كانت سببًا ليقوّي حجّته حول إعجاز القرآن الكريم و الذي يتمثّل في النظم، فهو لم يذكر هذه الحجج بهذا الترتيب لمجرّد ذكرها متتابعة و إنّما لجعل هذه سببًا لتلك.

تجعل العلاقة السببية الحجّة شبه منطقية و تعطي الخطاب سمة منطقية تتجلى في ترابط عناصره وتناسق أفكاره. كما أنّ هذه العلاقة قد تبدو واضحة للمحلّل، في حين قد تكون خفية يصعب اكتشافها فتبدوا الأفكار مفكّكة في حين تكون مترابطة في شكل خفي.

---

[1]– المرجع نفسه، ص 325.

[2]– المرجـــع نفســـه، ص 327.

3 3 عـــلاقـــة الاقتضـــاء:

تذهب سامية الدريدي إلى أنّ «علاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية لأنّها ككلّ علاقة حجاجية تصل الحجّة بالنتيجة المرصودة للخطاب و لكنّها تتميز عن كلّ علاقة بأنّها تجعل الحجّة تقتضي تلك النتيجة اقتضاءً و العكس صحيح بحيث تغدو العلاقة ضربًا من التلازم بين الحجّة والنتيجة و هو ما لا توفّره سائر العلاقات حتى السببية منها و صاحب الخطاب الحجاجي _مع هذا الصنف من العلاقات_ يعمد إلى الاجتهاد كلّ الاجتهاد في إضفاء نوع من الحتمية على العلاقة بين الحجّة و النتيجة فيحكم الترابط بينهما بشكل يوحي بأنّ الأولى تقتضي الثانية والثانية تستدعي الأولى ضرورة حتى وإن لم يكن الأمر كذلك و كانت الصلة في حقيقتها ضربًا من التلازم "المصنوع" و الاقتضاء "المتكلّف" المفروض».[1]

تتميز علاقة الاقتضاء بقوّة حجاجية كبيرة بسبب الصلة الوثيقة بين الحجّة و النتيجة، حيث تستلزم حجّة ما نتيجة ما و العكس صحيح، فيقوم المرسِل بجعل الصلة بين النتيجة والحجّة حتمية قدر المستطاع حتى أنّه لا يمكننا تصور الأولى دون الثانية، غير أن هذه الصلة قد تكون حتمية فعلاً وقد تكون ضربًا من التصنّع و التكلّف.

يتحقّق الاقتضاء في الحجاج في استعمال الجمل الشرطية أي على جمل تحتوي شرطًا و أداة وجوابًا، و قد استعمله الجرجاني في ردّه عن الزاهدين في رواية الشعر و حفظه بسبب ما نجد فيه من هزْل و سخف و كذب و باطل. يقول: « ثمّ إنّك لو لم تَرْوِ من هذا الضرب شيئًا قطٌّ، و لم تحفظ إلا الجدَّ المحضَ، و إلا ما لا مَعابَ عليك في روايته، و في المحاضرة به، وفي نسخه و تدوينه، لكان في ذلك غنًى و مَنْدوحةٌ، ولَوَجدْتَ طَلِبتَك و نِلتَ مُرَادك، و حصل لك ما نحن ندعوك إليه من علم الفصاحة، فاختر لنفسك، و دع ما تكره إلى ما تُحبّ »[2] و يقصد الجرجاني بقوله (هذا الضرب) ذلك الشعر الذي يحتوي على كلام سخيف وباطل، و يدعوا هؤلاء إلى رواية الشعر الجيّد فقط فإن ذلك سيكون له نتيجة رائعة و هي أنك تكتسب علمًا وافرًا و أدبًا زاخرًا.

يذكر الجرجاني في مسألة إصغارهم للنحو «...لو أنّ هؤلاء القوم؛ إن تركوا هذا الشأن تركوه جملةً، و إذ زعموا أن قدر المفتَقَر إليه القليل منه، اقتصروا على ذلك القليل، فلم يأخذوا أنفسهم بالفتوَى فيه، والتصرٌّف فيما لم يتعلّموا منه، و لم يخوضوا في التفسير، و لم يتعاطوا التأويل، لكان البلاء واحدًا، و لكانوا إذ لم يبنُوا لم يهدموا، و إذ لم يصلحوا لم يكونوا

---

[1]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 335.

[2]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 12.

سببًا للفساد...»[1] فالجرجاني يرى أنّ المصيبة ستكون أخفّ إذا اكتفى الزاهدون بالنحو بتركه جملة أو لو لم يأخذوا بتشعباته، غير أنّ هؤلاء تحدّثوا فيه من غير علم و خاضوا في تفسيره و ليس لهم دراية بمسائله.

تعدّ أدوات الشرط المختلفة أقدر الروابط الحجاجية على توفير صلة الاقتضاء و السبب في ذلك: «أما عن مأتى الاقتضاء في الشرط فإنّه آت من قيام الجملة الشرطية، _في الآن ذاته_ على التّلازم و التعلّق السببي بين الشرط و الجواب أي أنّ الشرط يستوجب ضرورة الجواب وهو في الآن ذاته متسبب لهذا الجواب أي أنّه سبب لنتيجة هي الجواب »[2] توفّر الجملة الشرطية إذا علاقة اقتضاء بين السبب و النتيجة والتي تتمثّل في الشرط و جوابه في مستوى أوّل و بين الحجّة التي يمثّلها الشرط و الجواب معًا و النتيجة التي قد يصرح بها المتكلّم و قد يخفيها و النتيجة التي أرادها الجرجاني الاعتناء بعلم النحو نظرًا للدور الهام الذي يلعبه في كشف سرّ إعجاز القرآن الكريم.

3 4 علاقـــة الاستنتـــاج:

يعدّ الاستنتاج من العلاقات المنطقية فـــــ «هذه العلاقة منطقية دون شكّ أو لنقل هي ممّا يدين به الحجاج للمنطق و هي في جوهرها خاصيّة من الخصائص التي تؤكد (...) أن الحجاج فنّ: فن الانتقال من فكرة إلى أخرى بشكل منظّم و ميسّر »[3] يسمح الاستنتاج بالخروج من فكرة إلى أخرى بطريقة مبسّطة ومنظّمة، مما يجعل الحجاج يرتقي إلى درجة الفنّ، و هي من آليات المنطق بدون منازع.

تقدم سامية الدريدي تعريفًا للاستنتاج عن طريق الرموز تقول: « و علاقة الاستنتاج هذه يمكن أن يرمز إليها بالشّكل التالي:

إذن

أ ←——————— **ب**

فالحجّة "أ" تقود إلى النتيجة "ب" وفق تسلسل منطقي إذا كنّا في ميدان المنطق الخالص و شبه منطقي إذا دخلنا باب الحجاج، أي أنّ المتكلّم يستنتج النتيجة من حجّة يقدّمها فإذا بنتيجة الخطاب متولّدة من رحم الدّليل أو البرهان ناشئة عنه عائدة إليه»[4] الاستنتاج إذن هو أن نخلص

---

(1)– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 32.

(2)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 335.

(3)– المرجع نفسه، ص 339.

(4)– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 339.

إلى نتيجة ما انطلاقًا من حجّة معيّنة، و هو ما من شأنه أن يدخل الخطاب الحجاجي في خانة الشبه المنطقي.

لجأ الجرجاني إلى استخدام هذه العلاقة في أواخر كتابه، حيث ذكر عددًا من الحجج التي نفى بها آراء المعارضين، حيث ذهب إلى أنّه لا يجوز أن يكون الإعجاز في الكلم المفردة، و لا يجوز أن يكون في معاني الكلم المفردة، و لا أن يكون في ترتيب الحركات و السّكنات، أو أن يكون بالإتيان بكلام يجعلون له مقاطع، و فواصل كالذي نراه في القرآن، كما أنّه لا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللّسان، يذكر هذه الحجج ليستنتج القارئ أنّ سرّ الإعجاز أمرٌ خاص بالقرآن الكريم وحده لم يعرف له مثيل من قبل، و هو ذلك النظم الذي أعجز العرب قاطبة. و الذين كانوا على دراية بنظم الكلم و سحره وبيانه، فلولا ذلك لبطل التحدي.[1]

3 5 علاقـــة عـــدم الاتفـــاق أو التناقـــض:

يقوم المرسل أثناء حجاجه بتنسيق حججه و جعلها مناسبة و موافقة للنتيجة التي يريد إثباتها، لكن الأمر يختلف في هذه العلاقة فهي « علاقة ذات خلفية منطقية واضحة إذ ندفع أمرًا بإثبات تناقضه مع نتيجة للخطاب و إن كنّا لا نستطيع الحديث عن تناقض شكليّ خالص في الحجاج من قبيل أسود/أبيض و إنّما أقصى ما نستطيع الحديث عنه انعدام التوافق... »[2] تقوم هذه العلاقة بالربط بين الحجّة و النتيجة أو بين مختلف الحجج و توفّر هذه العلاقة اتّصالاً مميّزًا كونه مبني في جوهره على الانفصال، فهي علاقة تعمل على إقناع المتلقي من خلال إثبات تناقض الحجة مع النتيجة مما يجعل هذه العلاقة معقّدة و خفية بالنسبة للمتلقي.

تتحقق هذه العلاقة بتوظيف مجموعة من الروابط الحجاجية و هي: لكن، بل و حتى «و هي روابط تشترك جميعها في إثبات القطع مع ما سبقها أو نفيه من جهة و إثبات ما لحقها وتأكيده من جهة ثانية فحضورها في موضع معيّن من النّص إنّما يشي بالخلاف و يؤكد أنّ العلاقة الحجاجية المعتمدة إنّما هي علاقة عدم الاتفاق »[3] يوظف المرسل هذه الروابط بين حججه و بين الحجج والنتائج ليجعل العلاقة التي تربطها: علاقة عدم التوافق.

---

[1]- ينظـــر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 386-387.

[2]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 344.

[3]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 347.

جاء في الدلائل: « و الفائدة في معرفة هذا الفرق: أنّك إذا عرفته عرفت أنّ ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تنافست دلالتها و تلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل»[1] فالجرجاني اعتمادا على "بل" ينفي الرأي و يثبت الرأي الثاني.

ربط الجرجاني في موقع آخر بين حجّتين بواسطة لكن، فيقول: «ثمّ إنّ هذه الشّناعات التي تقدّم ذكرُها، تلزَم أصحاب «الصِّرفة» أيضًا، و ذاك أنّه لو لم يكن عجزُهم عن معارضة القرآن و عن أن يأتوا بمثله، لأنّه معجزٌ في نفسه، لكن لأن أدخِل عليهم العجزُ عنه، و صرفت هِمَمهم و خواطرُهم عن تأليف كلام مثله، و كان حالُهم على الجملة حالَ من أُعدِم العلمَ بشيءٍ قد كان يعلمُه، و حيل بينه وبين أمرٍ قد كان يتّسع له. لكان ينبغي أن لا يتعاظمَهُم، و لا يكون منهم ما يدلّ على إكبارهم أمرَهُ، وتعجّبهم منه، و على أنّه قد بهرهم، و عظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبارُ منهم والتعجّب للذي دخل من العجز عليهم، و رأوه من تغيُّر حالهم، و من أن حيل بينهم و بين شيءٍ قد كان عليهم سهلاً، و أن سُدَّ دونه بابٌ كان لهم مفتوحًا »[2] أراد الجرجاني أن ينفِ حجة أصحاب الصرفة القائمة على أنّ الله عزّ و جلّ صرفهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن و يثبت الفكرة الأخرى و هي أنّ القرآن الكريم معجز في ذاته.

أسالت مسألة إعجاز القرآن الحبر الكثير، و دار حولها النقاش طويلاً، حيث اجتهد كلّ فريق في تقديم الحجج التي تدعم رأيه.

وضع الجرجاني كتابه الدلائل لإثبات فكرة أنّ القرآن معجز بنظمه، و يردّ على أصحاب الصرفة وغيرهم فجاء نصّه لذلك حجاجيًا.

استخدم الجرجاني جلّ التقنيات التي يتيحها الحجاج في خطابه: الآليات اللغوية؛ حيث جاءت لغة الجرجاني في كثير من الأحيان حجاجية فقد وظّ ف ألفاظ التعليل و كذا أدوات الربط كالواو، أو، لكن وعبارات من قبيل رغم أن و إن كذا بالإضافة إلى الآليات البلاغية، حيث وظّف الصور البلاغية بمختلف أنواعها و التي تضفي على النص صبغة حجاجية و يكون لها الدور الفعّال في التأثير على المتلقي كما لجأ الجرجاني إلى استخدام آليات شبه منطقية و التي تتمثّل في السّلم الحجاجي الذي يرتّب الحجج ترتيبًا معيّنًا لآنّ ترتيبها يمنحها قوّة إقناعية.

اعتمد الجرجاني أيضًا على المقدمات التي تعدّ نقطة انطلاق الاستدلال و هي على أنواع _كما سبق ذكره_ وقائع، حقائق، افتراضات قيم ثم ترتيب هذه القيم و في الأخير المواضع.

---

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49-50.

(2)- المصدر نفسه، ص 390-391.

يعدّ التكرار أيضًا من تقنيات الحجاج، لأنّه يسمح بترسيخ الأفكار في ذهن المتلقي وإبقائها حاضرة في ذهنه، و يكون التكرار بإعادة ذكر الفكرة أكثر من مرّة أو عن طريق رفع الصوت وخفضه في مواضع معيّنة، ممّا يستدعي حضورًا للمرسِل، الذي يعدّ أيضًا آلية من آليات الإقناع و كذا إبقائه الفكرة المراد الإقناع بها حاضرة أمام الجمهور كما تلعب الضمنيات دورًا حجاجيًّا خاصة من خلال الاستفهام.

تجب الإشارة إلى أنّ تقنيات الحجاج لا تنحصر في تلك التي ذكرنا، بل هناك تقنيات أخرى، قد يلجأ إليها المرسِل لإنشاء خطاب حجاجي، غير أنّ المرسِل ليس مضطرًا لتوظيف كل التقنيات الحجاجية فبإمكانه الاقتصار على عدد معيّن من هذه التقنيات.

يقوم الحجاج في أساسه على الإتيان بالحجج المؤيدة لرأي المرسِل و الحجج الداحضة لأراء المعارضين له، لذلك تتنوع الحجج في الخطاب، و نظرًا لهذا التنوع الكبير للحجج عمل الباحثون منذ القدم على تصنيف هذه الأنواع، فبينما جعلها أرسطو: خاصة و مشتركة، صناعية و غير صناعية ذهب بيرلمان إلى جعلها في مجموعتين كبيرتين تظمّ كل مجموعة جملة من الأنواع الحججية، إن فصل هذه الأنواع من الناحية النظرية أمر بسيط لكن فصلها في الناحية التطبيقية أمر تعترضه بعض الصعوبات؛ لأن هذه الأنواع متداخلة فيما بينها و قد نجد حجّة تنتمي إلى أكثر من نوع. كما أنّه ليس من الضروري أن نجد في الخطاب كلّ أنواع الحجج، فالمرسِل ليس مجبرًا على استخدام كلّ الأنواع، بل قد يوظف نوعًا أو نوعين فقط.

اعتمد الجرجاني في الدلائل على مختلف الحجج، و قد وجدنا استعمال المثال حاضرًا بقوّة في كتابه، ففي كلّ مرّة يريد إثبات رأيه يستخدم المثال.

لا يذكر المرسِل حججه بشكل عشوائي، بل يقوم بربط حججه بواسطة عدد من العلاقات: كالعلاقة السببية، علاقة الاقتضاء، علاقة الاستنتاج، علاقة التتابع و كذا علاقة عدم الاتفاق. حيث يسمح هذا الترابط بين الحجج في أداء الحجاج لوظيفته على أكمل وجه.

الخاتمة

بعد أن نظرنا في بنية الحجاج في كتاب دلائل الاعجاز للجرجاني فإننا توصلنا إلى جملة نتائج، نجملها فيما يلي:

- يعد الحجاج من أقدم مواضيع البلاغة الكلاسيكية، فقد عرف منذ العصر اليوناني ثم اندثر بعد ذلك ليعيد "بيرلمان" بعثه من جديد، فدخل – الحجاج– بذلك مرحلة جديدة في العصر الحديث.
- كان للعرب اسهامات في هذا المجال قديما و حديثا؛ عرفوا الحجة لغة و اصطلاحا، وضعوا شروطا للمحاجج و ضوابط للحجاج.
- توفر اللغة عدة استراتيجيات، و من أهمها الاستراتيجية الحجاجية؛ وهي فن توزيع مختلف الوسائل الحجاجية واستخدامها لتحقيق الإقناع عبر مراحل متدرجة زمنيا و منطقيا. ومن أهداف هذه الاستراتيجية حصول الاقتناع لدى المتلقي عن طريق مختلف الحجج وليس عن طريق التعنيف و الإكراه أو عن طريق شحن مشاعر المتلقي الذي يؤدي إلى الاندفاع دون الاقتناع.
- يمتاز النص الحجاجي عند "الجرجاني" بعدة خصائص:

– أعرب الجرجاني منذ بداية كتابه عن سبب وضعه لهذا الكتاب؛ الكشف عن سرّ إعجاز القرآن الكريم، وهذه الخاصية تدعى "القصد المعلن" وهي خاصية أساسية في النص الحجاجي إذ على المحاجج تبيان نيته في الحجاج.

– وظّف الجرجاني على نحو دقيق التسلسل الذي يحكم ما يحدثه الكلام من تأثيرات، أو انفعالات و هذا يدل على أنّ الإستراتيجية الحجاجية تمارس على جميع الأصعدة، فهي لا تقتصر على مجال واحد أو طبقة معينة؛ فيمارسه الرئيس و العامل البسيط، الصغار والكبار و ذلك بوعي تام منهم لأن هذه الإستراتيجية اختيار.

- اخترنا "دلائل الإعجاز" كمدونة لهذا البحث؛ كونه نص حجاجي بامتياز، نلاحظ أن الجرجاني في كتابه يشرك قراءه من خلال توظيفه الملفت للانتباه لكاف الخطاب كما يحضره من خلال مخاطبته خطاب الحاضر فيجعله بذلك مشاركا وجدانيا.
- إن المتلقي ليس شخصا بسيطا ساذجا بل له أفكار و معتقدات لابد من مراعاتها، فالآراء لا تطرح أبدا في ميدان بكر و المتلقي يملك كامل الحرية في تبني آراء المرسل أو رفضها، و هو ما علمه "الجرجاني" و عمل به فترك للمتلقي كامل الحرية في إتباع رأيه أو تركه مما يدّل على ذكاء الكاتب و ينبئ بمعرفته الدقيقة بنفسية المتلقي و قدراته و آفاق انتظاره، فجاء الخطاب نتيجة لذلك متناغما.

- امتاز الخطاب عند الجرجاني بالتطور المنطقي، فهو نص قائم على البرهنة، إذ جاء بناؤه على نظام معيّن ترابطت فيه العناصر وفق نسق تفاعلي و تهدف جميعها إلى غاية مشتركة.
- من أبرز سمات النص الحجاجي الحوارية، و التي كانت حاضرة بقوة في الدلائل و يتجلى ذلك من خلال توظيف الجرجاني لكاف الخطاب بكثرة، واستعمال الحوار في عدّة صفحات.
- تمنح الحوارية النصَ طاقة حجاجية تسمح لنا بدراسة خطاب ما اعتمادا على البنى الحجاجية. والنص الحجاجي في جوهره حوار مع المتلقي.
- لا يكون الحجاج في اتجاه واحد، إذ لابدّ من حجاج مضاد، وهو ما توفّر في الدلائل؛ ففي كل مسألة يعرضها الجرجاني يذكر الفكرة المناقضة و المعارضة لها و يحاول في الوقت ذاته تفنيدها ودحضها و إثبات وجهة نظره و التأكيد عليها.
- ذكرنا أهمّ خصائص النص الحجاجي و التي توفّرت في نص الجرجاني، فكان بذلك نصّا حجاجيًا بامتياز ولذلك وقع اختيارنا عليه.
- أنّ الحجاج ليس موضوعيا محضا و لا ذاتيا محضا؛ فهو يخاطب العقل و القلب معًا. فالحقيقة في الحجاج نسبية و ذاتية لكن ليس إلى غير حدّ بل هي مرتبطة بالمقام وهي ليست حتمية ونهائية، لأنه قد يأتي من يعارضها و يدحض حججها.
- تمكنّ الجرجاني من إقناع جمهوره، و ذلك نتيجة توفر عدّة شروط نذكر منها:
  - عرض الجرجاني أفكاره بموضوعية و ترك كامل الحرية للمتلقي للأخذ بأفكاره أو تركها مما جعل شرط الحياد متوفّرا في حجاجه. ابتعد الجرجاني عن كلّ تقنيات التحكم و السيطرة.
  - وضع الباحثون في هذا المجال شروطًا لابدّ من توفرها في المحاجج، و خاصة الجاحظ الذي اشترط الخبرة، الحذق بالآلة البلاغية و النصوص الاستشهادية الضرورية لكلّ حجاج و هو ما توفرّ عند الجرجاني فهو يملك لغة جيّدة وهو على دراية بالبلاغة بمختلف أبوابها، كما لم يخلو كتابه من الشواهد سواء من القرآن الكريم أو الشعر العربي.
  - يجب على المتكلم مراعاة مقتضيات المقام و التي تشمل: أحوال الخطيب، كفاءته اللّغوية، هيئته و صفاته الخلقية. و قد كان الجرجاني على دراية بمتلقيه –المعتزلة– وميزاته.

- ينجح الحجاج إذا تمكّن المتكلّم من التأثير في المتلقي و الذي يتجلى في تبني المتلقي أفكار المتكلّم، فقد قضى الجرجاني على إشكالية اللفظ و المعنى ورسّخ فكرة النظم حيث أخذ به جلّ من جاء بعده.
- نركزّ على نتيجة غاية في الأهمية وهي أنّ نجاعة الخطاب الحجاجي لا تعني البتة صدقه بل تعني توظيف ذكي لشروط النجاعة، إضافة إلى ضرورة اختيار المقدمات المتفق عليها بين المتخاطبين على الأقل كي لا يسقط الخطاب في المغالطة و كي لا ينهار البناء الحجاجي كذلك.
- تتطلب معرفة البنية الحجاجية معرفة التقنيات الحجاجية المستخدمة من قبل المتكلم وكذا الحجج التي عوّل عليها و العلاقات التي تربط بينها.

- يمتاز الخطاب الحجاجي بتقنياته الخاصة التي لا نجدها في أي مجال من المجالات؛ والسبب في ذلك أنّ المرسل يتحكم بحججه فيرتبها كيف يشاء و حسب ما يوفّره له سياق خطابه.
- اعتمد الجرجاني لغرض تحقيق هدفه: أي إقناع المتلقي و إحداث تغيير في أفكاره وسلوكه كلّ ما توفر من تقنيات لغوية، بلاغية، شبه منطقية... و غيرها.
- من التقنيات اللّغوية التي استخدمها الجرجاني لإقناع جمهوره ألفاظ التعليل لأنّه مضطر لتعليل آرائه حتى يتمكن من إقناع الآخر، و عليه أن يعلّل رفضه لأفكار غيره حتى يبتعد المتلقي عن تلك الأفكار.
- استعمل الجرجاني كذلك الوصف باعتبار أنّ الصفة التي نختارها تعبّر عن وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع.
- استعان الجرجاني كذلك بالأدوات البلاغية : كالاستعارات، الكنايات؛ فهي تؤدي دورًا فعّالاً في تحقيق الإقناع و لها أثر بالغ في المتلقين.
- يعدّ السلم الحجاجي من أهم تقنيات الحجاج؛ لأنّ ترتيب الحجج وفق طريقة معيّنة يمنح الحجاج قوة اقناعية.
- من النتائج الهامة أيضا أنّ الحجج لا تخضع لمقياس الصحة أو الخطأ و إنما لمقياس القوة والضعف و الإقناع و عدمه.
- وظّف الجرجاني كلّ التقنيات المتاحة لإقناع المتلقي، فاعتمد على الحقائق، الافتراضات، القيم مما أعطى خطابه قوة اقناعية بارزة.
- يعدّ التكرار من أبرز تقنيات الحجاج، وذلك لأنه يبرز شدّة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها.

- فيما يتعلّق بأنواع الحجج، فقد وظّف الجرجاني مختلف الأنواع: الحجج الشبه منطقية، الحجج المؤسّسة لبنية الواقع، وتلك المؤسَّسة على الواقع، وتلك التي تستدعي القيم والأخرى التي تستدعي المشترك. غير أنّ المحاجج ليس مجبرا على استعمال كلّ هذه الأنواع فقد يستعمل نوعا واحدا أو نوعين فقط، ففي الدلائل مثلا نلاحظ غياب الحجج التي تعتمد العلاقات الرياضية.
- يصعب من حيث التطبيق الفصل بين هذه الحجج لأنّ الحدود الفاصلة بينها ليست واضحة، كما أننا نجد الحجة الواحدة تنتمي إلى أكثر من نوع و هذا ما يجعل تصنيفها صعبا.
- ليتمكن المتكلم من إقناع جمهوره عليه أن يربط بين كلامه و يصل بين أجزائه و بذلك تقوم الحجة بدورها على أكمل وجه. فتحديد العلاقة الحجاجية و الانتباه إلى الموقع الذي تحتله يساهم في تحديد وظيفتها و تبيان مدى حجاجيتها بالإضافة إلى أن حضور علاقة ما و غياب أخرى أو اعتماد علاقة من العلاقات أكثر من الأخرى يحمل دلالة و ليس محض صدفة.
- استخدم الجرجاني عددًا من العلاقات: السببية، علاقة الاستنتاج، الاقتضاء وكذا عدم الاتفاق وهذه العلاقات تجعل النص معقدًّا جدًّا، و يصعب في كثير من الأحيان تحديد هذه العلاقات.

ذكرنا باختصار أهمّ النتائج التي توصلنا إليها، نرجو من اللّه أن نكون قد وفقنا في الإجابة على الإشكاليات المطروحة في البداية، و نتمنى أن يكون بحثنا تكملة للبحوث الأخرى في هذا الميدان و يكون نافذة لبحوث أخرى نظرا لثراء هذا الموضوع و تشعبّه.

قائمة المصادر و المراجع

قـــائمـــة المصـــــادر و المـــراجـــــع

أولا: قــائمـــة المصـــادر والمـــراجـــع باللّغـــة العـــربيـــة

1 - ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ب ط، دار الفكر، لبنان 2004.

2 - ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ب ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960.

3 - ابن قتيبة أبو محمد عبد اللّه بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر، ط 2، دار التراث، القاهرة 1983.

4 - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، ط 1، دار صادر، بيروت 1992.

5 - ابن يعيش موفق الدين، شرح المفصل، ب ط، عالم الكتب، بيروت ب ت.

6 - أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، ب ط، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس ب ت.

7 - باحاذق عمر محمد عمر، شرح الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم للإمام عبد القاهرعبد الرحمن الجرجاني، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق 1998.

8 - الباقلاني أبو بكر محمد محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، ب ط، دار المعارف، مصر ب ت.

9 - بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، ط1، أمانة عمان، الأردن 2007.

10 - بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط 1، بيت الحكمة، العلمة 2009.

11 - بوقرة نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ط 1، جدارا للكتاب العالمي، الأردن 2009.

12 - تحريشي محمد، النقد والاعجاز، ب ط، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق 2004.

13 - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق محمد خلف اللّه أحمد ومحمد زغلول سلام، ط 3، دار المعارف، مصر 1976.

14 -الجاحظ أبو عثمان بن بحر بن محبوب، رسائل الجاحظ (الرسائل الكلامية)، قدّم لها و بوّبها علي بو ملحم، ب ط، دار و مكتبة الهلال، بيروت 2004.

15 -الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، البيان و التبيين، الجزء الأول، تحقيق و شرح حسن الشندولي، ب ط، دار المعارف، تونس 1990.
16 -الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر، ب ط، مكتبة الخانجي، القاهرة ب ت.
17 - الخويسكي زين كامل و محمود أحمد نحلة وآخرون، في اللّغة والأدب، ب ط، دار الوفاء، الإسكندرية ب ت.
18 - الدريدي سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية الى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، اربد 2008
19 - الرويلي ميجان و البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط 3، المركز الثقافي العربي، لمغرب 2002.
20 - الزمخشري جار اللّه أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غواض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّص، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض 1998.
21 - السيوطي الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، ب ط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية ب ت.
22 - الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2004.
23 - طبارة عفيف عبد الفتاح، روح الدين الإسلامي، ط14، دار العلم للملايين، مصر 1977.
24 - الطلبة محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2008.
25 - عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1998.
26 - العسكري أبو هلال الحسن بن عبد اللّه بن سهل، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر العربي، ب بب ت.
27 - العمري محمد، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ط 1، إفريقيا الشرق، المغرب 1999.
28 - فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة 2004.
29 - مسلم مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، ط2، دار مسلم، الرياض 1996.

30 - وهبة مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربي في اللّغة والأدب، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت 1984.

ثـــانيـــا: قـــائمـــة المـــراجـــع المتـــرجمـــة

31 - أفلاطون، محاورة جورجياس، ترجمة محمد حسن ظاظا، ب ط، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، مصر 1970.

32 - بلانشيه فيليب، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط 1، دار الحوار، سورية 2007.

33 - تودوروف تزفيتان، باختين: المبدأ الحواري، ترجمة فخري صالح، ط 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، عمان1996.

34 - دلاش الجيلالي، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ب ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ب ت.

35 - فان دايك تون، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، ب ط، دار القاهرة للكتاب، القاهرة2001.

ثـــالثـــا: قـــائمـــة المجـــــلات

36 - مجلة المجمع الجزائري للّغة العربية، العدد6، السنة 3، 2007.

37 - مجلة اللّغة و الأدب، جامعة الجزائر، العدد 11، ماي 1997.

38 - مجلة التبيين، تصدر عن الجاحظية، العدد18، 2002.

رابعـــــا: قـــائمـــة المصـــادر والمـــراجـــع باللّغـــة الأجنبيـــة

39- Anscombre Jean-Claude et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue, 3eme édition, Mardaga, Belgique 1997.

40- Argod- DutardFrançoise, La linguistique littéraire, Armand colin, Paris 1998.

41- Aristote, Rhétorique, Traduit par C.E. Ruelle Revue par P. Vanhembryck, Librairie générale française, France 1991.

42- Breton Philippe, L'argumentation dans la communication, 3eme édition, La découverte, Paris 2003.

43- Charaudeau Patrick et Maigueneau Dominique, Dictionnaire d'analyse' du discours, Edition du Seuil, Paris 2002.

44- Ducrot Oswald, Dire et ne pas dire (principe de sémantique linguistique), 3eme édition, Herman, paris 1991.

45- Ducrot Oswald, Les échelles argumentatives, Les éditions de minuit, Paris 1980.
46- Gouvars Jean-Michel, La pragmatique (outils pour l'analyse littéraire), 1er édition, Trand colin, Paris1998.
47- Plantin Christion, Essais sur l'argumentation (introduction à l'étude linguistique), Edition Kimé, Paris 1990.
48- Maigueneau Dominique, Les terme clés de l'analyse du discours, Edition du Seuil, Paris 1996.
49- Maingumeau Dominique, Pragmatique pour le Discours littéraire, éditeur DUNOD, France 1997.
50- Meyer Michel, Logique, langage et argumentation, 2eme édition, Hachette université, Paris 1982.
51- Théorie des topoi, Sous la direction de Jean-claude Anscombre, Edition Kimé, 1er édition, Paris 1995.
52- Vlalaine de Nuchèze et Colletta Jean-Marc, Guide terminologique pour l'analyse des discours, Peter Lang, Bern 2002

خامسا: قائمة المجلات باللّغة الأجنبية

53- Langage et société, n°70, Décembre 1994.
54- Langue française, n°112, Paris 1996.
55- Hermes, n°15, CNRS édition, 1995.

ملحق المصطلحات

A

Accessoires	الزوائد
Accord Universel	الموافقة العامة
Acte de	العمل اللغوي
	Language
Adhérer	الإذعان
Affective	واقعية
Allure	الهيئة
Analogie	التماثل
Anti-modèle	عكس النموذج
Argument	الحجة
Argument Pragmatique	حجة براغماتية
Argument de gaspillage	حجة التبذير
Argument de direction	حجة الإتجاه
Arguments de transivité	حجج التعدية
Arguments de réciprocité	حجج قائمة على علاقة تبادلية

Arguments basés sur les valeurs	حجج تستدعي القيم
Arguments purs	حجج صافية
Argumenter	يحاجج
Argumentation	حجاج
Auditoire universel	متلقي كوني
Auditoire particulier	متلقي خاص

B

Binaire	ثنائية

C

Cause	سبب
Choix des qualification	اختيار النعوت
Classe Argumentative	الطبقة الحجاجية
Cognitives	تواصلي
Cohérence	التناغم
Cohérence de l'enchainement	تناغم التسلسل
Communiquer	تواصل
Conclusion	نتيجة
Connecteurs	روابط
Contexte	سياق
Contenus informatifs	محتوى معلوماتي

D

Declancheur	مشغل
Définition	تعريف
Démarches argumentatives	خطوات حجاجية
Démonstration	استدلال
Dialoguique	الحوارية
Duscursive	خطابية

E

Ecart	الإنزياح
Effets pratique	تأثير عملي
Emeteur	المرسل
Emotion	الإنفعال
Enchainements	تسلسلات
Enoncé	ملفوظ
Envoutement	الفتنة
Exigence	مطلب
Externe	خارجية

F

Face	الوجه
Faits	الوقائع
Faits supposés	الوقائع المفترض
Figure rhétorique	صورة بلاغية
Flatterie	تملّق

Formelle	شكلية

H

Hiérarchies des valeurs	هرمية القيم

I

Idée	فكرة
Impersonnelle	غير شخصية
Implicite	ضمني
Incompatibilité	التناقض/ عدم الاتفاق
Inférence	الاستنباط
Intensité d'adhésion	درجة الإذعان
Interprétant	المخاطَب
Interne	داخلية
Itinéraire	المسار

L

Langue ordinaire	اللغة العادية
Liaison de succession	الاتصال التتابعي
Liaison de coexistence	الاتصال التواجدي
Liaison symbolique	الاتصال الرمزي
Lieux	المواضع
Lieux de quantité	مواضع الكم
Lieux de qualité	مواضع الكيف
Lieux communes	مواضع مشتركة
Lieux spécifiques	مواضع خاصة
Lieux dépendant du genre	مواضع متعلّقة بالنوع

Lieux argumentatifs	مواضع حجاجية
Locuteur	المخاطب (المتكلم)
Logique analytique	منطق تحليلي

M

Message	رسالة
Modèle	نموذج
Modèles	نماذج
Modalité d'expression	صيغة تعبيرية

N

Nécessaire	حتمية
Négation	نفي
Non formel	غير شكلية

O

Opinion de l'orateur	رأي المرسل
Orateurs	خطباء
Orientation	التوجيه

P

Passage	الانتقال
Persuasion	الاقتناع
Pragmatique	التداولية
Présence	الحضور
Présentation	طريقة العرض
Présomption	الافتراضات
Preuves	التصديقات
Procédés de liaison	طرائق الوصل أو الاتصال

Procédés de dissociation	طرائق الفصل أو الانفصال
Progression	تقدّم

Q

Questionnement	المساءلة

R

Rapport de participation	علاقة مشاركة
Rationnelle	محتملة
Réalités	الحقائق
Réciprocité	التبادل
Reformulation	إعادة الصياغة
Règle de justice	قاعدة العدل
Représentation	التمثيلات
Recepteur	متلقي
Résumé	الملخص
Rhétorique	الخطابة
Rhétorique de manipulation	خطابة التوجيه
Rhétorique de séduction	خطابة الفتنة

S

S'autoconvaincre	إقناع النفس
Sauver la face	حفظ ماء الوجه
Schémas argumentatifs	الأشكال الحجاجية
Schématisation	التخطيط
Sciences formelles	العلوم الشكلية

Semiotics	علم العلامات
Situation	وضعية
Sommet	قمّة
Sous-argument	ما دون الحجج
Structures phrastique	البنى الجملية
Système formels	النظام الشكلي

T

Termes	الألفاظ
Terrain vierge	ميدان بكر
Territoire	المنطقة
Théories dialogique	نظريات الحوارية
Théorie de questionnement	نظرية المساءلة
Thèse	أطروحة
Topos	موضع
Topoï	مواضع

V

Valeurs	القيم
Vraisemblable	المحتمل